بسم الله الرحمن الرحيم

سِيرَةُ النُّورِ

مواقف من حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم

دراسة أدبية في السيرة النبوية - تحليل عقدي - رسم مشهدي - توثيق دقيق

إعداد: د. محمد عماره

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❊ * ❊

سيرة النور

مواقف من حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم

دراسة أدبية في السيرة النبوية — تحليل عقلي · رسم مشهدي · توثيق دقيق

إعداد: د. محمد عمارة

الطبعة الأولى

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يُحّد بزمان، ولا يُحصر بمكان، ولا يشبهه شيء من خلقه على اختلاف الأكوان، الذي خلق الخلق لحكمة، وأرسل الرسل تترى رحمة، فما ترك أمة في ضلالها إلا أقام عليها حجة من رسول أو نذير، ولا ترك سبيلاً إلى الهداية إلا أوضحه أتّم توضيح وأبين تبيين. أحمده حمداً يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، حمداً لا يبلغ كنه عظمته، ولا يستوفي حّق جلاله، فله الحمد كما هو أهله، وله الحمد على ما قضى وقّدر، وله الحمد على ما أعطى ومنع، وله الحمد في الأولى والآخرة.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادةً تنفتح بها أبواب الإيمان، وتنشرح لها صدور الموقنين، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفّيه من خلقه وخليله، وأمينه على وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، أرسله رحمةً للعالمين، وحجةً على الخلائق أجمعين، وخاتماً للنبيين، فما ترك بعده طريقاً إلى الله إلا بّينه، ولا باباً من أبواب الخير إلا فتحه ودعا إليه، ولا باباً من أبواب الشر إلا حّذر منه وأغلقه.

اللهم صِّل وسِّلم وبارك عليه صلاةً توافي عدد ما خلقَت، وتساوي ثقل ما وزنَت، وتدوم بدوام ملكك، كما هو أهل لذلك من نبّي ورسول. اللهم صِّل عليه صلاةً تشرح بها صدورنا لمعرفة سيرته، وتفتح بها قلوبنا لمحبته، وتلحقنا بها بصالح أصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد، فإن من أعظم ما يتقّرب به العبد إلى ربه، ومن أزكى ما تشغل به الأوقات وتُعَّمر به الأعمار، معرفةَ سيرة هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فإن سيرته صلى الله عليه وسلم ليست تاريخاً يُروى للتسلية، ولا حكايات تُحفظ للمؤانسة، بل هي تطبيق عملي لكل ما جاء به القرآن من الهدى، وكُّلَ خَّلة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم شرٌح حّي لآية من آياته، فمن أراد أن يعرف كيف يكون الصبر، نظر في صبره على أذى قريش، ومن أراد أن يعرف كيف تكون الرحمة، نظر في رحمته بمن آذاه، ومن أراد أن يعرف كيف يكون العدل، نظر في حكمه فيمن خانه، ومن أراد أن يعرف كيف يكون الزهد، نظر في حصيره الذي أّثر في جنبه وهو يملك خزائن الفيء. فسيرته صلى الله

عليه وسلم ميزانٌ توزن به الأخلاق كلها، ومرآةٌ يرى الناظر فيها كمال الإنسانية حين تتشكّل بهدي الوحي.

ولم يكن هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، في كل ما حمله من رسالة، إلا أحسن من دعا إلى الله على بصيرة، مصداقاً لقول الله تعالى: «ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين» (سورة فصلت: 33)، فجمع بين الدعوة بالقول والعمل بالصالحات معاً، حتى كانت سيرته كلها تطبيقاً حيّاً لما دعا إليه. وقد كان صلى الله عليه وسلم، في كل خطوة من خطوات هذه الدعوة، لا يبتغي لنفسه شيئاً، ولا يطلب لذاته جاهاً، بل كان حاله كحال الأنبياء من قبله الذين قال أحدهم، فيما حكاه القرآن عن شعيب عليه السلام: «إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب» (سورة هود: 88)، فهذه الآية الجامعة تختصر مقصد كل داعية صادق عبر التاريخ: أن غايته الإصلاح وحده، وأن توفيقه ليس من نفسه بل من ربه.

ودفعني إلى جمع هذه الصفحات ما رأيته من حاجة القارئ المعاصر إلى أن يقرأ هذه السيرة العظيمة بأسلوب يجمع بين رصانة التحليل وجمال العرض، فلا يكون النص جافاً يُحصي الوقائع إحصاءً بلا روح، ولا خيالياً يتزيّن بما لم يثبت ابتغاء التأثير في القارئ. فاجتهدُت أن يكون منهج هذا الكتاب جامعاً بين عمق النظر الذي عُرف به أهل التحليل من كُتّاب هذا العصر في تفسير دلالات المواقف، وبين الرسم المشهدي الذي يضع القارئ في قلب الزمان والمكان، وبين الغوص في نفوس من حول النبي

صلى الله عليه وسلم من صحابته وخصومه دون أن يتجاوز ذلك إلى اختراع ما لم يثبت من مشاعره الخاصة هو نفسه صلى الله عليه وسلم.

ولم أُل جهداً في توثيق كل ما استشهدت به: فالآيات القرآنية مذكورة بنصها وموضع سورتها، والأحاديث مبّينة الدرجة بين صحيح متفق عليه، وحسن، ومشهور في كتب السيرة دون قوة سنده، أنّبه على ذلك حيث وجب التنبيه، فلا أسّوي بين ما ثبت وما لم يثبت، ولا أكتم على القارئ درجة ما أذكر، فإن الكتابة عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم أمانة، ومن خان الأمانة في النقل عن صادق لم يكذب قط، فقد جنى على من ينقل عنه أعظم الجناية.

فهذه كلماٌت يسيرة، اقتضاها الخاطر المكدود طلباً للتقرب إلى من أرسله الله رحمةً للعالمين، أقّدمها بين يدي القارئ باباً باباً وفصلاً فصلاً، من مفترق الطرق في غار حراء، إلى وداعه أصحابه في عرفات، عابرةً بنسبه الشريف وأسمائه ومعاركه.

وقد أُعّد هذا الكتاب بالكامل بمساعدة تقنية الذكاء الاصطناعي، أداةً في البحث والصياغة والتوثيق، تحت إشراف مباشر ومراجعة، حرصاً على ضبط كل ما فيه من آية أو حديث أو رواية بميزان الدقة الذي تستحقه هذه السيرة الشريفة، فما كان من توفيق فيه فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو تقصير فمن نفسي، وحسبي أني بذلت في تحقيقه ما استطعت.

وإني أجعل ثواب هذا الكتاب كله، وما يكون فيه من خير ونفع، صدقةً جاريةً عن روح والدي العزيز، ذلك المعلم المتواضع الذي قضى عمره يُدّرس الفيزياء لأجيال من

الطلاب، يحّبب إليهم العلم بصبره ودماثة خلقه قبل أن يحّببهم في مادته، فكان حسن الخلق سجيته التي ُعرف بها بين تلاميذه وأهله وجيرانه قبل أن تُعرف معارفه العلمية. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه عني خير الجزاء على ما بذله وربّى وعّلم، اللهم اغفر له وارحمه، وألحقه بالصالحين من عبادك، وألحقنا بهم غير مفّرقين، واجعل هذا العمل المتواضع في ميزان حسناته، ونفعاً متصلاً له ما تعاقب الليل والنهار. اللهم وبّلغه مّنا السلام، وبّلغ عّنا سلامنا إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو أحّق من تُهدى إليه التحية وأولى من يستحق منا كل وفاء.

راجياً أن تكون هذه الصفحات نافعة لقارئها، شفيعةً لكاتبها، ووفاءً ببعض حق من سبقني إلى الآخرة، وأن يتقبلها الله عملاً صالحاً خالصاً لوجهه، وصلى الله على من ُبعث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الكتاب

الفصل التمهيدي: نسبه وأسماؤه وطفولته

الباب الأول: مكة — البعثة والصبر — الفصل الأول: مفترق الطرق — الفصل الثاني: الصوت في الظلام — الفصل الثالث: خير جار — الفصل الرابع: حصار الإيمان — الفصل الخامس: الإسراء والمعراج

الباب الثاني: المدينة — التأسيس والمواجهة — الفصل السادس: ليلة الهجرة — الفصل السابع: بدر — الفصل الثامن: عشر سنين لم يقل لي فيها لِمَ — الفصل التاسع: أُحد — الفصل العاشر: عدل لا يحيد — الفصل الحادي عشر: صلح الحديبية — الفصل الثاني عشر: فتح مكة

الباب الثالث: ملامح من الخُلق والمعجزة — الفصل الثالث عشر: ولنا الآخرة — الفصل الرابع عشر: في بيته كما هو في منبره — الفصل الخامس عشر: أصحابي — الفصل السادس عشر: آيات في الكون والجماد — الفصل السابع عشر: علاقته بالقرآن — الفصل الثامن عشر: لا تغضب — التأني والكرم والحلم

الباب الرابع: المعارك والغزوات — الفصل التاسع عشر: جميع غزواته صلى الله عليه وسلم

الباب الخامس: ختام السيرة — الفصل العشرون: تدمع العين ويحزن القلب — الفصل الحادي والعشرون: حجة الوداع — الفصل الثاني والعشرون: فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

ملحق: الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين

◆ ❁ ◆

الفصل التمهيدي: نسبه وأسماؤه وطفولته

(نسبه الشريف)

اتفق النّسابون وأهل السير على نسبه صلى الله عليه وسلم إلى عدنان دون خلاف يُذكر، وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصّي بن كلاب بن مّرة بن كعب بن لؤّي بن غالب بن فِهر بن مالك بن النّضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدِركة بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن مَعّد بن عدنان. وقد قال ابن القيم في وصف هذا النسب: إلى هاهنا معلوم الصحة متفق عليه بين النّسابين ولا خلاف فيه البّتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام.

ولم يكن هذا النسب الرفيع أمراً يُذكر فخراً فحسب، بل شهد به أعدى أعدائه قبل أن يشهد به أصحابه، فحين سأل هرقل عظيم الروم أبا سفيان بن حرب - وكان لا يزال على شركه يومذاك - عن نسب النبي صلى الله عليه وسلم في قومه، أجابه أبو سفيان بأنه ذو نسب معروف، فقال هرقل معّلقاً: وكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها. وفي شهادة الخصم بنسبه قبل شهادة المحّب، دلالة على أن شرف هذا النسب لم يكن مما يُمكن الطعن فيه حتى من ألّد خصومه.

(أسماؤه وكنيته)

كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكّنى أبا القاسم، باسم ابنه الأول الذي توفي صغيراً، وكانت هذه الكنية معروفة بين أصحابه يخاطبونه بها. وقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله أن رجلاً قال: نُهينا أن نُسّمي بأبي القاسم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تسموا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي، فإنما جعلت قاسماً أقسم بينكم - وذلك خاص بزمانه صلى الله عليه وسلم على ما رّجحه جمع من العلماء.

وأما أسماؤه، فقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب - والعاقب الذي ليس بعده نبي. وفي هذا العدد، كما عّلق ابن حجر، ليس حصراً لكل ما يحمله من أسماء وصفات، بل إشارة إلى أبرز ما اختّص به من بين الأسماء التي لم تُطلق على نبي قبله بهذا المعنى.

(أولاده وذريته)

رُزق النبي صلى الله عليه وسلم بسبعة من الولد: ثلاثة من الذكور، وأربع من الإناث، وكلهم من زوجته الأولى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، إلا ابنه إبراهيم، فأمه مارية القبطية، وقد مّر ذكر وفاته في فصل سابق من هذا الكتاب.

فأما الذكور، فأولهم القاسم، وبه كان يُكّنى،ُولد بمكة قبل البعثة وتوفي طفلاً صغيراً. وثانيهم عبد الله، وقدُولد بعد البعثة، ولُّقب بالطيب والطاهر، وتوفي أيضاً صغيراً، حتى ظّن المشركون أن نسله من الذكور قد انقطع فعّيروه بذلك، فأنزل الله ّرداً عليهم سورة الكوثر: «إنّا أعطيناك الكوثر، فصّل لربك وانحر، إّن شانئك هو الأبتر» (سورة الكوثر: 3-1). وثالثهم إبراهيم، من مارية القبطية، وقد توفي رضيعاً كما تقّدم.

وأما البنات، فأكبرهّن زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة وهي أصغرهّن، وقد أسلمن جميعاً وهاجرن مع أبيهّن، وتوّفين كّلهّن في حياته صلى الله عليه وسلم إلا فاطمة، فقد أدركت وفاته ولحقت به بعدها بستة أشهر. وقد تزوجت زينب من أبي العاص بن الربيع، ورقية وأم كلثوم على التوالي من عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى لُّقب بذلك ذي النورين، وتزوجت فاطمة من علي بن أبي طالب، فأنجبت له الحسن والحسين، ومن نسلهما امتّدت ذرية النبي صلى الله عليه وسلم في الأمة إلى اليوم.

وفي اجتماع هذا النسب الرفيع مع هذه الأسماء المتعددة الدلالات مع هذه الذرية التي ابُتلي فيها بفقد أكثر أولاده الذكور صغاراً، صورة متكاملة لرجلُحفظ له شرف الأصل، وُخّص بأسماء تحمل من المعاني ما يفوق مجرد التسمية، وامُتحن في عاطفته الأبوية كما يمتحن بها كل إنسان، ثم بقيت بركة ذريته جارية من بنته الوحيدة التي أدركت وفاته دون سائر إخوتها.

(الطفولة والنشأة)

وقبل أن نلحق بهذا النسب الشريف مسيرَته في الرجولة والبعثة، يحسن أن نقف عند حلقةٍ أسبق منها: تلك السنوات الأولى التي تشكّل فيها الإنسان قبل أن يصبح نبيّاً، فالطفل الذي فقد أباه قبل أن يراه، والفتى الذي رعى الغنم في جبال مكة، لم يكونا تفصيلين عابرين في سيرته، بل كانا التمهيد الذي أعّد الله به هذا القلب لحمل أعظم أمانة عرفتها الأرض.

(يتيم قبل أن يُولد)

توفي عبد الله بن عبد المطلب، والد النبي صلى الله عليه وسلم، في يثرب وهو عائد من رحلة تجارية إلى الشام، ولم يكن قد رأى ابنه بعد، إذ توفي وأمه آمنة بنت وهب لا تزال حاملاً به. وفي هذا اليتم المبكر، الذي عاشه هذا الطفل منذ اللحظة الأولى، ما يستحق التأمل: أن الله اختار لنبيه أن يبدأ حياته يتيماً لا سند له من أب، ليكون هو نفسه بعد ذلك أرحم الناس بكل يتيم عرفه، مصداقاً لقول الله تعالى: «**ألم يجدك يتيماً فآوى**» (سورة الضحى: 6).

(مولده في عام الفيل)

وُلد النبي صلى الله عليه وسلم في عام الفيل، حين قصد أبرهة الأشرم بجيشه المزوّد بالفيلة هدم الكعبة، فردّه الله بطير أبابيل ترميه بحجارة من سجّيل، كما وصفت ذلك سورة كاملة من القرآن: «**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم**

في تضليل» (سورة الفيل: 2-1). وفي اقتران مولده بهذه المعجزة التي حمت بيت الله من الهدم، إشارة لا تخفى على المتأمل: أن الذي حمى بيته الحرام بجيش من الطير، هو نفسه الذي أعدّ في تلك السنة عينها من يهدم بيوت الأصنام كلها من داخلها بعد أربعين عاماً.

فلماٌولد، بُعث إلى جده عبد المطلب من يبشّره، فحمله إلى الكعبة وسمّاه محمداً، وهو اسم لم يكن معروفاً عند العرب من قبل، حتى سأله بعضهم عن سبب اختياره، فأجاب - كما تذكر كتب السيرة - أنه أراد أن يُحمد في السماء والأرض. وفي هذا الاختيار، الذي يسبق البعثة بأربعين عاماً، توافق عجيب بين اسم اختاره جدّ لا يعلم الغيب، وحقيقة سيصدقها هذا الاسم بعد عقود.

(عند حليمة السعدية)

جرت عادة أشراف مكة أن يلتمسوا لأبنائهم مرضعات من البادية، حيث الهواء أنقى واللسان أفصح، فقدمت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، من بني سعد بن بكر، في سنة قحط، تلتمس رضيعاً تُرضعه، فلم ترغب النساء في رضاعة الغلام اليتيم إذ لا يُرجى من ورائه العطاء الذي كنّ يرجونه من أبناء الأغنياء، حتى لم يبقَ لحليمة سواه، فأخذته على غير رغبة منها في أول الأمر، كما تصف هي نفسها ذلك في الرواية المشهورة عند أهل السير.

وما إن حملته حتى تبدّلت أحوال بيتها كله، على ما تصفه هي بنفسها: درّت ناقتها الهزيلة حتى شبعت أسرتها من لبنها، وسمنت أتانها الكاسدة حتى سبقت الركب في عودتهم، حتى قال لها زوجها الحارث بن عبد العزى: والله يا حليمة، لقد أخذتِ نسمة مباركة. وهذه الرواية، وإن لم ترد بهذا التفصيل الكامل في الصحيحين، مشهورة معتمدة عند جمهور أهل السير، تصف بركة رافقت هذا الطفل منذ رضاعه الأول.

(حادثة شقّ الصدر)

وفي تلك السنوات التي قضاها بين بني سعد، وقعت الحادثة التي وثّقها الحديث الصحيح المتفق عليه عند مسلم عن أنس بن مالك: أن جبريل عليه السلام أتاه وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظّ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه وأعاده مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى ظئره فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. فلما رأت حليمة أثر ذلك عليه، خشيت عليه وردّته إلى أمه آمنة.

وفي هذا التطهير المبكر، الذي سبق البعثة بسنوات طويلة، ما يتجلّى فيه اسم الله اللطيف: أن يُعدّ الله قلب نبيّه، وهو بعدُ طفل صغير لا يعقل حقيقة ما جرى له، إعداداً لا يشبهه إعداد بشري، فلا يبقى فيه نصيب لغير الحق يستقر.

(رحيل الأم ثم الجدّ)

وعادت آمنة بابنها إلى مكة، فلما بلغ السادسة من عمره، خرجت به إلى المدينة تزور أخواله من بني عدي بن النجار، ولتريه قبر أبيه الذي مات فيها، فأقامت شهراً، ثم قفلت راجعة، فتوفيت في الطريق بموضع يقال له الأبواء، ودُفنت هناك، فعاد الغلام اليتيم إلى مكة مع أمّ أيمن، جاريةِ أبيه، التي لازمته بعد ذلك ملازمة لم تنقطع طوال حياته، حتى كان يقول فيها بعد ذلك، فيما ثبت عنه: أم أيمن أمي بعد أمي.

وفي فقد الأم بعد فقد الأب، وهو لم يتجاوز السادسة، امتحان مضاعف يندر أن يحتمله طفل بهذا العمر، لكن الله الذي هو الحفيظ لم يتركه لليتم وحده، بل هيّأ له في كل محطة من يحفظه: مرضعة أرضعته، وجارية أحبّته حبّ الأم، وسيأتي بعدهما جدّ ثم عمّ.

كفل عبد المطلب حفيده اليتيم بعد وفاة أمه، فأحبّه حبّاً لم يُخفه، حتى كان يُقرّبه من نفسه في مجلسه الخاص عند الكعبة، الذي كان لا يجلس عليه أحد من أبنائه إجلالاً له، فإذا جاء محمد أجلسه معه، وقال لأعمامه حين حاولوا منعه، كما تذكر ذلك كتب السيرة: دعوا ابني، فوالله إن له لشأناً. وفي هذا التقريب، من جدّ يعرف قدر هذا الحفيد قبل أن يعرفه أحد سواه، أول اعتراف بشري بمكانة سيبلغها هذا الصبي لم يبلغها أحد من ذريّته.

ثم توفي عبد المطلب وحفيده ابن ثماني سنين، فحزن عليه الصبي حزناً شديداً، حتى مشى خلف نعشه باكياً كما تذكر بعض الروايات في كتب السيرة. وبهذا فقد النبي

صلى الله عليه وسلم، قبل أن يبلغ العاشرة، أباه وأمه وجدّه، ثلاثة من أقرب الناس إليه في أقل من عقد من الزمان، وفي هذا التوالي من الفقد، الذي يبدو للناظر قسوة، حكمة تتجلى فيما بعد: أن من ذاق مرارة اليتم في كل صوره، كان أرحم الناس بيتامى أمته من بعده.

(في كنف أبي طالب)

كفله بعد ذلك عمّه أبو طالب، وإن لم يكن الأغنى بين إخوته، فأحبّه حبّاً فاق حبّه لأبنائه، وقد يُروى عن أهل السير أن بيته كان لا يكاد يتّسع طعامه لعياله، فإذا أكل محمد معهم شبعوا جميعاً، وإذا أُخرج من طعامهم لم يشبعوا، حتى قال أبو طالب لأهله فيما يُروى: إن لابن أخي هذا لشأناً، دعوه يأكل معنا فإن فيه بركة. وهذه الرواية أقرب إلى المشهور عند أهل السير منها إلى الثابت بسند صحيح متصل، وقد تكررت في أكثر من مصدر من مصادر السيرة القديمة، شاهدة على ملمح رافقه منذ رضاعه الأول: أن البركة تحلّ حيث يحلّ.

(رحلة الشام ولقاء بحيرى)

وحين بلغ الثانية عشرة، خرج مع عمه أبي طالب في رحلة تجارية إلى الشام، فمرّا في الطريق ببصرى، حيث كان راهب يُدعى بحيرى، عرف من صفاته المذكورة في كتبه أنه النبي المنتظر، فدعا القافلة إلى الطعام، وأوصى أبا طالب أن يرجع بابن أخيه ولا يقدم به إلى الشام خشية أن يعرفه يهود تلك البلاد فيؤذوه. وهذه القصة، رواها الترمذي

وغيره، لكن في سندها ضعفاً عند بعض المحققين كالألباني، وإن استشهد بها كثير من أهل السير في معرض الحديث عن الإرهاصات التي سبقت البعثة، فأنبّه عليها هنا كما نبّهت على أمثالها في مواضع سابقة من هذا الكتاب.

(راعي غنم)

وكسائر صبيان قومه، رعى النبي صلى الله عليه وسلم الغنم في صباه، لأهل مكة أولاً بأجر يسير، حتى قال عن نفسه فيما ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري: ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة. وفي هذا الإقرار البسيط بعمل متواضع لا يستنكف منه، وهو يخاطب به أصحابه من موقع النبوة، درس في أن العمل الشريف، مهما بدا صغيراً، لا ينقص من قدر صاحبه، بل كان في رعي الغنم، كما لاحظ من تأمل هذا الحديث، تدريب خفي على صفات القيادة: الصبر على الشاردة، والرفق بالضعيف، والحلم على من لا يفهم الكلام.

(حرب الفجار وحلف الفضول)

وشهد وهو في مقتبل شبابه، دون العشرين، حرب الفجار التي نشبت بين قريش وحلفائها وبين قيس عيلان، فكان يحضرها مع أعمامه، لا مقاتلاً بل ناقلاً للنبل إليهم، كما تذكر بعض الروايات المشهورة عند أهل السير. ولما وضعت الحرب أوزارها، شهد حلف الفضول، ذلك الحلف الذي تعاقدت فيه بطون من قريش على ألا يجدوا بمكة

مظلوماً من أهلها أو من غيرهم إلا قاموا معه حتى تُردّ إليه مظلمته، وقد ذكره النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة بكلام يحمل تقديراً واضحاً، فقال فيما رواه أحمد وصححه غير واحد من أهل العلم: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت. وفي هذا الثناء على حلف عقده قومه وهو بعدُ مشرك، اعتراف بأن مكارم الأخلاق، أينما وُجدت، لا تُرفض لأن أصحابها لم يبلغوا الإيمان بعد.

(زواجه من خديجة)

ولما بلغ الخامسة والعشرين، اتصل اسمه بخديجة بنت خويلد، تلك التاجرة الموسرة التي كانت تستأجر الرجال في مالها، فبلغها ماءعرف عنه من صدق الحديث وأداء الأمانة، حتى سُمّي بين قومه «الأمين» قبل أن تصله النبوة بسنوات طويلة، فعرضت عليه أن يخرج بتجارتها إلى الشام، فخرج ومعه غلامها ميسرة، فربح فيها ربحاً لم يعهد له نظير، وعاد ميسرة يحدّثها بما رأى منه من صدق وأمانة، فرغبت في الزواج منه، فتزوجها وهو ابن خمس وعشرين، وهي يومئذ تكبره بخمس عشرة سنة، فكانت أول من آمن به حين جاءه الوحي، وأول سند يستند إليه في كل ما يستقبل من أمر هذه الدعوة.

(خاتمة الفصل)

وهكذا انقضت هذه السنوات الأربعون التي سبقت مفترق الطرق في غار حراء: طفولة أثقلها اليتم المتكرر، وصبا تدرّب فيه على الصبر والرفق وهو يرعى غنيمات قومه، وشباب عرفته قريش كلها بالأمانة قبل أن تعرفه بالنبوة. فلم يكن ما جاء به بعد الأربعين انقلاباً مفاجئاً في شخصية رجل، بل كان امتداداً طبيعياً لقلب أُعدّ منذ نعومة أظفاره ليكون أهلاً لحمل أعظم أمانة عرفتها الأرض، وليصدق فيه ما وصفه الله به من بعدُ: «**وإنك لعلى خُلق عظيم**» (سورة القلم: 4).

الباب الأول: مكة — البعثة والصبر

◆ ❁ ◆

الفصل الأول: مفترق الطرق

في تلك السنوات التي سبقت الأربعين، كانت مكة مدينة تعيش على حافة سؤالها الكبير ولا تعرفه. كعبتها مكتظة بالأصنام، أسواقها تموج بالتجارة، وقوافلها تمتد شمالاً إلى الشام وجنوباً إلى اليمن، فتمتلئ جيوبها بالذهب وتظل نفوسها فقيرة من معنى يجمعها. كان العرب أمة لا تنقصها الفطنة ولا الشجاعة، وإنما ينقصها الميزان الذي يضبط هذه الفضائل فلا تتحول نقائض.

وفي وسط هذا الصخب، كان هناك رجل لا يصخب. لم يكن غريباً عن قومه نسباً، ولا غريباً عنهم خلقاً، فقد ائتمنوه على أماناتهم حتى سّموه "الأمين"، وعرفوا فيه من رّقة الطبع وصدق المعاملة ما لم يعرفوه في أحد سواه.

كان أبو طالب، عّمه الذي كفله، يحبه حّباً يتجاوز كل حساب، وفي الجهة الأخرى من المدينة، كانت خديجة بنت خويلد، تلك التاجرة التي عرفت من أمانته في مالها ما لم يعرفه أحد غيرها من صدق نفسه، تتأمل زوجها في عزلته المتزايدة عند الناس، تلك العزلة التي لم تكن هجراً للحياة بل تأهباً لشيء لم يكن قد حضر بعد.

هكذا كانت غار حراء، حين بدأ يرتقيه وحيداً، يتحّنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله، كما تذكر الرواية الصحيحة عن عائشة رضي الله عنها في "بدء الوحي" من صحيح البخاري. لم يكن في ذهابه طلب عزلة هاربة من ضجيج، بل تأهيلاً صامتاً لروح ستُكَّلف قريباً بأن تحمل أثقل أمانة عرفتها الأرض.

وجاء ذلك المساء من رمضان، حيث الجبل ساكن والمدينة تحته نائمة على غفلتها، حين انكسر صمت الكون عند فم الغار. جاءه المَلك فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ. فأخذه فضّمه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ، فأخذه فضّمه الثانية، ثم أرسله فقال: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ، فأخذه فضّمه الثالثة ثم أرسله فقال: «**اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم**» (سورة العلق: 5-1).

وفي هذه الآيات الأولى يتجلى اسما الله الحسنيان الخالق والأكرم معاً، وكأن أول ما يستقبل به الوحي البشرية هو التذكير بأن مصدر كل علم هو نفسه مصدر كل خلق وإكرام.

نزل من الجبل وقلبه يرجف رجفة لم يعرف الرجف قبلها رجلاً في قوته وثباته. ذهب إلى زوجته. "زّملوني، زّملوني" – كما ينقل الحديث الصحيح نفسه – فزّملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: "لقد خشيت على نفسي". وفيها صدق إنساني خالص يهدم كل تصور مسبق عن النبوة كحالة من العصمة المتعالية على الخوف البشري.

فقالت خديجة، كما يثبته الحديث المتفق عليه: "كلا والله، ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكّل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحّق". وفي هذه الشهادة تتجلى دلالة اسم الله الرحيم، الذي استحضرته خديجة وهي تطمئن زوجها بأن من يصل الرحم ويعين الضعيف لا يخزيه رٌّب رحيم بعباده.

ثم أخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل، فلما قّص عليه خبر ما رأى، قال ورقة: "هذا الناموس الذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، يا ليتني أكون حّياً حين يخرجك قومك". فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أو مخرجّي هم؟" قال: "نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلاٰ عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤّزراً" — وهذا ثابت في الحديث الصحيح المتفق عليه في "بدء الوحي".

ومنذ تلك الليلة انقسمت مكة إلى مكة التي لم تعرف بعد -ولو إلى حين- ومكة التي التقت بالحق.

ومرت أيام بعد تلك الليلة في غار حراء، ثم انقطع الوحي فترة، وفي هذا الانقطاع وحده درس نفسي عميق: لم يكن الوحي تياراً متصلاً يحمل صاحبه على غير إرادته، بل كان يأتي ويغيب، وفي غيابه ما يشبه الاختبار. وقد وصف جابر بن عبد الله، في الحديث الذي اتفق عليه البخاري ومسلم وهو يحّدث عن تلك الفترة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يمشي سمع صوتاً من السماء، فرفع رأسه فإذا المَلك الذي جاءه بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعب منه فرجع وقال:

زّملوني زّملوني، فزّملوه، فأنزل الله عليه أول سورة المزمل: «يا أيها المّزمل، قم الليل إلا قليلاً» (سورة المزمل: 2-1)، ثمٌ حّمي الوحي بعد ذلك وتتابع.

وحين يأمر الوحي بعد سكونه بالقيام بعد أن جاء أمره الأول بالقراءة، تظهر فيه دلالة اسم الله الحكيم، فالرسالة تتدّرج في تكليفها بحكمة تناسب كل طور من أطوار النفس وهي تتأهل لحمل أعظم أمانة، فلما تتابع الوحي جاءت سورة المدثر بأمر أصرح في الإنذار: «يا أيها المدثر، قم فأنذر، وربك فكّبر، وثيابك فطّهر، والرجز فاهجر» (سورة المدثر: 5-1)، وفي تكبير الرّب قبل كل أمر آخر ما يستحضر اسمه الكبير، الذي لا يُكّبر شيء على الحقيقة سواه.

◆ ❁ ◆

الفصل الثاني: الصوت في الظلام

وهنا تبدأ مكة – تلك المدينة المكتفية بغفلتها – تواجه ما لم تتوقعه: صوتاً واحداً، خفياً في بدايته، يتسرب إلى بيوتها بيتاً بيتاً، لا بصخب الأسواق بل بهدوء يثير الفضول أكثر مما يثيره الصياح. كانت الدعوة في سنواتها الأولى دعوة همس، تنتقل بين الأقربين أولاً: خديجة التي صّدقت من اللحظة الأولى، وعلّي بن أبي طالب الذي نشأ في كنفه، وزيد بن حارثة الذي كان عبداً فأصبح بالعتق والوفاء أقرب من كثير من الأحرار، وأبو بكر الصديق، الذي لم يسأل دليلاً ولم يطلب معجزة، بل صّدق فوراً، ثقة برجل عرف صدقه أربعين عاماً قبل أن يُكَّلف بأعظم قضية يمكن أن يكذب فيها إنسان.

ولما اتسعت هذه الحلقة الصغيرة شيئاً فشيئاً، اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم من دار الأرقم بن أبي الأرقم مقّراً يجمع فيه أصحابه ليعّلمهم القرآن سّراً بعيداً عن أعين قريش، وفي هذا الاختيار لطف ورفق برعاية حديثي الإيمان، يرّبيهم بالتدريج لا بالصدمة، يعّلمهم في سرّية لا تكشفهم لأذى مبكر يفوق طاقتهم.

لكن الدعوة، وهي تتسع من البيت إلى الحلقة الصغيرة فالأوسع، بدأت تصطدم بعقلية مكة التي بنت كيانها على عبادة الأصنام، فرأت في هذا الصوت تهديداً وجودياً لكل ما تقوم عليه حياتها. وكان من أشد من واجه هذا التهديد بكبريائه أبو جهل، الذي

يروي عنه ابن إسحاق في السيرة – وهي رواية مشهورة عند أهل السير وإن لم ترد بهذا اللفظ في الصحيحين – أنه أقّر في خاصة نفسه بصدق ما جاء به محمد، ومع ذلك رفض الانصياع له خوفاً على مكانته. أما أبو لهب، عّم النبي نفسه، فقد نزلت فيه سورة كاملة تخّصه بالذكر: «تبّت يدا أبي لهب وتبّ، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب، وامرأته حّمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد» (سورة المسد: 5-1). وفي هذا التناقض – قرب الدم وُبعد القلب عند الواحد، وُبعد النسب وقرب القلب عند آخرين كصهيب وبلال وسلمان – درس يهدم فرضية أن الإيمان يتبع النسب بالضرورة.

وبينما كانت هذه الحلقة تتسع في صمت نسبي، كانت قريش تتابع بعين القلق المتصاعد، تحاول أولاً أن تتجاهل، ثم تستهزئ، ثم – حين تأكدت أن الأمر لن يتراجع – بدأت تتحول إلى ما هو أعنف: المقاطعة والتعذيب والحصار.

الفصل الثالث: خير جار

في السنوات الأولى من الدعوة، حين بلغ أذى قريش لضعاف المسلمين حّداً لم يعد يُحتمل، نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى خيار لم يسبق إليه: لا أن يقاتل من لا قوة له بالقتال، ولا أن يطلب من أصحابه صبراً لا حّد له، بل أن يفتح لهم باباً للنجاة في أرض بعيدة، فقال لهم، كما تنقل ذلك الروايات المشهورة عند أهل السير وإن لم ترد بهذا اللفظ في الصحيحين: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن فيها ملكاً لا يُظَلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.

فخرجت أول طائفة من المسلمين، نحو اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، يتسللون من مكة في جنح الليل، حتى أدركتهم سفن تجارية حملتهم إلى تلك الأرض البعيدة، وفي هذا الخروج وحده، أن يرسل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى مملكة نصرانية بعيدة بينما هو يبقى وحده في مكة يواجه ما تبقى من شدتها، ما يكشف عن قائد يضع سلامة أصحابه الضعفاء فوق حساب اجتماعهم حوله في لحظة الخطر.

ولما بلغ قريشاً أن المهاجرين قد أمنوا في تلك الأرض وعاشوا فيها، كما وصفت ذلك أم سلمة رضي الله عنها التي كانت من بين المهاجرين، بقولها: جاورنا بها خير جار، النجاشي، أمّنا على ديننا وعبدنا الله لا نُؤذى ولا نسمع شيئاً نكره، ضاق صدر زعماء

مكة بهذا الأمان الذي وجده أعداؤهم بعيداً عن سلطانهم، فأرسلوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة محّملين بالهدايا الثمينة إلى النجاشي وبطارقته، يطلبون منه أن يرّد المهاجرين إليهم بحجة أنهم خرجوا عن دين قومهم.

ولم يقبل النجاشي، وهو ملكٌ عرف بعدله وعلمه بكتب أهل الكتاب، أن يفصل في الأمر دون أن يسمع من الطرف الآخر، فأرسل إلى المهاجرين يسألهم عن دينهم الذي تركوا من أجله كل شيء، فقام جعفر بن أبي طالب خطيباً عنهم، بكلام تُروى تفصيلاته في كتب السيرة، فقال للملك ما يصف فيه حال العرب قبل الإسلام بصدق لا يجّمل ولا يتجّمل: كنا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوّي منا الضعيف، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى توحيد الله، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الِجوار، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم.

فلما سمع النجاشي هذا الوصف الذي يجمع بين فضح حال الجاهلية وتعداد فضائل الدين الجديد، طلب من جعفر أن يتلو عليه شيئاً من القرآن نفسه، فتلا عليه صدر سورة مريم، في وصف زكريا حين نادى ربه نداءً خفّياً، وفي وصف مريم حين بّشرها المَلك بغلام زكي. وكانت لهذا الاختيار بالذات، تلاوة سورة عن مريم وابنها عيسى أمام ملك نصراني، دلالة لم تخَف على من سمعها، فبكى النجاشي، كما تصف الرواية المشهورة عند أهل السير، حتى أخضل لحيته بدموعه، وبكى معه أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، وقال كلمته التيُ حفظت في تاريخ هذا الموقف: إن هذا والذي

جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، ثم التفت إلى رسوَلي قريش وقال لهما: اذهبا، فوالله لا أسّلمهم إليكما.

ولم يكتِف عمرو بن العاص بهذه الهزيمة، فعاد في اليوم التالي محاولاً أن يفتح باباً آخر للوقيعة، فأخبر النجاشي أن المهاجرين يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فاستدعاهم النجاشي يسألهم، فأجابه جعفر بصدق لم يتنازل عنه رغم خطورة الموقف على مصيرهم: نقول فيه ما جاء به نبينا، هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، وروح منه. فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، وقال كلمة تُفَّسر بأن قول جعفر لم يتجاوز الحّد المعقول من التوحيد بمقدار هذا العود، ثم أمر برّد الهدايا التي حملها رسولا قريش، وقال: لا حاجة لي بها، فانصرفا خائبين، وأقام جعفر ومن معه في تلك الأرض، أمنين على دينهم، حتى السنة السابعة من الهجرة.

وفي هذا الموقف بمجمله، الذي امتّد بين خطبة وحوار ومحاولتي وقيعة فاشلتين، يتجلى ما يستحق التأمل في أكثر من زاوية: أن النبي صلى الله عليه وسلم، في أحلك ساعات الضيق المكي، لم يفقد الحكمة في حساب مكان آمن لأصحابه الأضعف، ولم يخطئ في تقدير شخص النجاشي الذيُعرف بعدله قبل أن يُختبر فيه ذلك العدل فعلاً.

الفصل الرابع: حصار الإيمان

كانت قريش، في تلك المرحلة، قد بلغت من القلق حّداً لم تعرفه من قبل. بدأت بالاستهزاء، فلما لم يُجِد، تحولت إلى الإيذاء المباشر. ومن أوضح الشواهد على هذا الإيذاء حديث خّباب بن الأرّت الصحيح المتفق عليه عند البخاري، حين قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها، ثم يُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصّده ذلك عن دينه، والله ليتّم هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، ولكنكم تستعجلون.

ومع شدة هذا الموقف، تجّلى من النبي صلى الله عليه وسلم خلال هذه السنوات القاسية رفقه الشديد بمن آمن به من الضعفاء والعبيد، حتى كان يخّصص جزءاً من ماله ليُعتق به من يُعَّذب في الله، وأشهر ذلك ما فعله أبو بكر مع بلال بن رباح حين اشتراه من سيده وأعتقه. وقدُروي في فضل بلال وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ثبت في الصحيح المتفق عليه من سؤال النبي صلى الله عليه وسلم له عن

أحّب عمل يرجو ثوابه، وهو ما يكشف عن رعاية شخصية ودودة لمن كان أكثر الناس استضعافاً في مكة.

وكان من أشد ما عُذّب به المسلمون الأولون ما نزل ببيت ياسر: سمية أمّه، أول شهيدة في الإسلام؛ قتلت برمح وهي تُصّر على إيمانها، وياسر أبوه من بعدها، وابنهما عمار يُعَّذب أمامهما. وقد روي في ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمر بهم وهم يُعَّذبون فيقول: "صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة" – حديث حسن صحيح بتصحيح بعض المحققين كالألباني، رواه الحاكم والطبراني وابن سعد، وليس من رواية البخاري ومسلم، لكنه مشهور ومعتمد في كتب السيرة.

ثم جاءت المقاطعة الشاملة لبني هاشم وبني المطلب، فانحاز أبو طالب إلى حماية ابن أخيه، وعاشوا في شِعبه نحو ثلاث سنوات في حصار خانق. وقد روي في "صحيح البخاري" عن المسّيب بن حزن أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على عّمه عند موته فقال له: يا عّم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاّج لك بها عند الله، فأبى أن يقولها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والله لأستغفرّن لك ما لم أُنَه عنك، حتى أنزل الله: «ما كان للنبّي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى» (سورة التوبة: 113). وفي إصراره على الاستغفار لعّمه حتى منع منه شرعاً، رّقة قلب لا تتبّدل حتى في أشد المواقف قساوة على النفس.

ثم، بعد وفاة أبي طالب بأيام قليلة، توفيت خديجة، أول من صّدق وأول من احتضن، فُسّمي ذلك العام عام الحزن، إذ فقد رسول الله صلى الله عليه وسلم في فترة قصيرة

سنَدين كانا يحميانه من جهتين مختلفتين تماماً. وفي هذا المنعطف، اتجه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يطلب النصرة، فواجه رفضاً أشد قسوة من رفض مكة نفسها، حتى أُغِري به صبيانها وعبيدها يرمونه بالحجارة حتى أُدميت قدماه. ومع ذلك، فحين عرض عليه مَلك الجبال أن يأمرهم بالانطباق على أهل الطائف انتقاماً له، أبى رحمة بهم، في الحديث المتفق عليه عند البخاري ومسلم، وقال: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً. وفي هذا الموقف وحده، حيث يُدعى للانتقام فيختار الرحمة، تتجلى عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم في أعلى تجلياتها.

وفي مرجعه من الطائف، تذكر كثير من كتب السيرة – وإن كان في سند هذه الرواية ضعف عند بعض المحققين كالألباني، رغم استشهاد ابن تيمية وابن القيم بها في معرض الكلام على الشكوى إلى الله – أنه دعا قائلاً: اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رّب المستضعفين وأنت ربي، إن لم يكن بك علّي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. وفي هذا الدعاء استحضار صريح لاسمي الله الرحيم والرّب، حيث استند في أحلك لحظاته إلى من هو أرحم الراحمين، حتى لو ظل الجسد ينزف والقلب يتعب.

◆ ❁ ◆

الفصل الخامس: الإسراء والمعراج

في تلك السنة التي تلت عام الحزن، حين كانت مكة كلها تثقل على صدره بحزنها وعداوتها، وحين كان الفقد لخديجة وأبي طالب لا يزال طرّياً في القلب، جاءت الليلة التي ستحمل أعجب رحلة في تاريخ البشر: ليلة الإسراء والمعراج، التي بدأت من المسجد الحرام، وانتهت بصعود لا تبلغه الأجنحة، في ليلة تتجاوز جزءاً لم يُدرك منها.

أُسري به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما يثبته القرآن في فاتحة سورة الإسراء: «**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا**» (سورة الإسراء: 1)، وفي هذه الآية وحدها ما يستحق التأمل: أن الوصف الذي اختاره القرآن لنبيه في أعجب رحلة عرفها لم يكن "رسولنا" أو "نبينا"، بل "عبده"، وكأن أعلى مقام يمكن أن يُذكر به الإنسان في أعظم لحظة من حياته هو أن يكون عبداً خالصاً لربه، لا شيء أعلى من ذلك.

ثم عُرج به من المسجد الأقصى إلى السماوات العلا، يقطع في رحلته تلك سماءً بعد سماء، حتى يلقى في كل سماء نبّياً من الأنبياء، كما يثبته الحديث الطويل الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم في وصف ليلة المعراج، فلقي في السماء الأولى آدم

أبا البشر، وفي الثانية يحيى وعيسى ابني الخالة، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى، وفي السابعة إبراهيم، أبا الأنبياء جميعاً، الذي وصفه الحديث بأنه أشبه الخلق به في صورته، وكأن في هذا التشابه بين أول من بنى الكعبة وآخر من جاء إليها برسالة، ربطاً رمزياً بين بداية التوحيد ونهايته.

ولما بلغ سدرة المنتهى، تلك الشجرة التي ينتهي إليها علم الملائكة فلا يتجاوزونها، رأى من عظمة الخلق ما لا تحمله العبارة البشرية وصفه، حتى وصف الحديث الصحيح أن أوراقها كآذان الفِيَلَة وأن ثمارها كالقِلال، وغشيها من أمر الله ما غشيها فتغيّرت، حتى عجز عن وصفها بدقة أكثر من ذلك تواضعاً أمام جلال ما رآه. وهناك، فُرضت عليه الصلوات الخمسون أول الأمر، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم بهذا التفصيل العجيب.

ولما رجع، مّر بموسى عليه السلام، فسأله موسى: بَم أُمرت؟ فقال: أُمرت بخمسين صلاة كل يوم، فقال له موسى: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جّربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشّد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك. فرجع، فُوضع عنه عشر، فرجع إلى موسى فقال له مثل قوله الأول، فرجع فُوضع عنه عشر أخرى، وتكرر ذلك مراراً حتى صارت خمساً، فلما رجع إلى موسى وأخبره أنها خمس، قال له موسى نفس كلامه السابق يطلب منه أن يرجع مرة أخرى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، في تلك الكلمة التي تختزل تواضعاً أمام

الله لا يقّل عن تواضعه أمام نصيحة أخيه موسى: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسّلم.

وفي هذا المشهد المتكرر بين السماء وموسى، يتجلى ما يستحق التوقف عنده طويلاً: نبّي متأخر زمنياً، في أعظم لحظة من حياته، يأخذ بنصيحة نبّي سبقه بقرون، لا استكباراً منه على القبول، ولا تجاهلاً لحكمة من عرف ضعف الناس قبل أن يعرفه هو، بل تواضعاً وتعاوناً بين الأنبياء يهدم كل فكرة عن التنافس بينهم، وكأن وحدة الرسالة الإلهية التي جاء بها الجميع لم تتعارض يوماً مع تعدد الرسل الذين حملوها.

ولما عاد إلى مكة في صبيحة تلك الليلة، أخبر قريشاً بما رأى، فكان ذلك أعظم اختبار لإيمان من حوله، حتى ارتّد بعض من كان قد أسلم حديثاً تكذيباً لهذا الخبر العجيب، لكن أبا بكر، الذي لم يتخّلف يوماً عن تصديقه منذ أول لحظة، قال كلمته المشهورة التي تُختصر بها قصة هذا الصّديق كلها: إن كان قال ذلك فقد صدق، وفي هذا الموقف شهادة أعمق على معدنه: أن يصّدق ما يتجاوز كل تصور بشري، فقط لأنه يعرف أن قائله لم يكذب طوال حياته، وهذا بالذات ما أسبغ عليه لقب "الصّديق" الذي لازمه منذ تلك الليلة.

وهكذا كانت رحلة الإسراء والمعراج، التي جاءت في أحلك لحظات الحزن المكي، تذكيراً بأن الله لا يترك عبده وحيداً في ضيقه، بل قد يفتح له في عتمة الأرض باباً من السماء لم يكن يتوقعه، وأن أعظم العطاء الإلهي قد يأتي بعد أشد سنوات الحرمان.

❊ ✦ ❊

الباب الثاني: المدينة — التأسيس والمواجهة

❊ ✦ ❊

◆ ❁ ◆

الفصل السادس: ليلة الهجرة

بلغ مكر قريش الأخير قراراً بالقتل الجماعي المدَّبر، يجتمع فيه كل بطون قريش على ضربة واحدة، فلا يُعرف لقبيلة وحدها يُطلب القَود. وفي تلك الليلة الحاسمة، تجمّع شباب قريش يحيطون بداره يتناوبون الرصد، فخرج عليهم وهم لا يرونه، وتلا قول الله تعالى: «وجعلنا من بين أيديهم سّداً ومن خلفهم سّداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون» (سورة يس: 9)، ثم انصرف ينثر على رؤوسهم تراباً وهم لا يشعرون، وفي هذا الحفظ الدقيق في لحظة الخطر الأقصى ما يستحضر اسم الله الحفيظ.

وتطّوع علّي بن أبي طالب، الفتى الذي نشأ في بيته، أن ينام في فراشه تلك الليلة متغّطياً ببردته، ليُظّن من بعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يزال في بيته، فيُؤَّمن بذلك خروجه. وخرج النبي صلى الله عليه وسلم، لا متجهاً شمالاً نحو المدينة مباشرة بل جنوباً نحو غار ثور، وكان أبو بكر الصديق رفيقه الوحيد في هذه الرحلة، كما يثبته الحديث الذي رواه البخاري عن البراء بن عازب، وكما يثبته القرآن نفسه في قوله: «إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إّن الله معنا» (سورة التوبة: 40). وفي طمأنته لصاحبه لم يكن نفياً للخطر الواقعي، فالخطر كان حقيقياً تماماً وسيوف الطلب تجوب الجبال، بل كان تذكيراً بأن المعية الإلهية لا تُقاس بمعايير القوة البشرية،

وفي قوله إنّ الله معنا استحضار لاسم الله القريب، الذي لا يُدَرك قربه بالحواس بل بالقلب الموقن.

وفي طريقهما، طمع سراقة بن مالك بن جعشم في جائزة مئة ناقة وضعتها قريش لمن يأتيهما حيّين أو قتيلين، فتبعهما على فرسه حتى كاد يدركهما، كما يحّدث هو نفسه في الحديث الذي رواه البخاري، حتى إذا سمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات من خوفه على صاحبه، ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الركبتين فخّر عنها. فلما عرف أنه ممنوع منهما، نادى بالأمان، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أمن، ثم بّشره – وهو الذي جاء يطلب قتله أو أسره قبل لحظات – بقوله: كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟ وتحقق ذلك الوعد فعلاً بعد عشرين عاماً، حين فتحت بلاد فارس وألبسه عمر بن الخطاب سواري كسرى بيده وفاءً بكلمة النبي صلى الله عليه وسلم. وفي هذا التبشير لعدّو مطارد بدل الانتقام منه، تكرار لذلك الخلق العظيم الذي رأيناه في الطائف: أن يرّد على من يطلب أذاه بالرحمة لا بالدعاء عليه.

ولما وصلا غار ثور، أقاما فيه ثلاث ليال، يأتيهما عبد الله بن أبي بكر بأخبار مكة ليلاً، وتقوم أسماء بنت أبي بكر بحمل الطعام إليهما، حتى هدأ الطلب وأمكن لهما السير. وفي هذا التدبير الدقيق، حيث تشترك أسرة أبي بكر كاملة في حماية هذه الرحلة، كل بحسب طاقته، نموذج للعمل الجماعي الذي لا يقوم على معجزة وحدها بل على تخطيط بشري محكم يصاحب التوكل.

وتلك كانت ليلة الهجرة وما تلاها، التي لم تكن مجرد انتقال جغرافي من مكة إلى المدينة، بل انتقالاً من طور الصبر المحض إلى طور التأسيس، ومن مرحلة كان فيها الإيمان يُختَبر بالتحمّل وحده، إلى مرحلة سيُختَبر فيها بالبناء والمواجهة معاً.

الفصل السابع: بدر

انتقلت الرسالة، بعد عشر سنوات من الصبر المحض في مكة، إلى مرحلة جديدة في المدينة، حيث أصبح للمؤمنين أرض يقفون عليها وسيف يحملونه، ولم يكن مّر ذلك الانتقال هيناً على نفوسهم، فإن من تعّلم الصبر وحده طويلاً قد يستثقل أن يتعّلم القتال حديثاً، حتى نزلت الآيات تأذن لهم بماءحرموا منه طويلاً: «أُذِنَ للذين يُقاتَلون بأنهمُ ظُلِموا وإّن الله على نصرهم لقدير» (سورة الحج: 39).

وفي السنة الثانية من الهجرة، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه يعترض قافلة تجارية لقريش، فبلغ أبا سفيان قائد القافلة الخبر، فأرسل إلى مكة يستصرخها، فخرجت قريش بجيش عظيم بلغ نحو ألف رجل، بينما كان عدد المسلمين لا يتجاوز ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، بلاءّدة تُذكر إلا سبعين بعيراً وأفراساً قليلة يتعاقب عليها الرجال.

وحين بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبر هذا الجيش الذي يفوقه عّدة وعدداً أضعافاً، توّجه إلى ربه بدعاء يكشف عن أعمق ما يكون من التضرع البشري في لحظة لا حول فيها إلا بالله، فرفع يديه مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه من شدة مّده يديه، وهو يقول، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند مسلم:

"اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من المسلمين لا تُعبد في الأرض"، حتى أخذ أبو بكر بيده وقال: يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. وفي هذا المشهد، حيث يبكي قائد الجيش نفسه قبل أن يُرفع سيف، يتجلى من الناحية الإنسانية الصرفة ما يدركه كل من خاض موقفاً يتجاوز طوقه: أن أعظم الشجعان ليسوا من لا يشعرون بثقل الخطر، بل من يلجؤون بهذا الثقل إلى من يملك وحده رفعه عنهم.

ونزل الوحي يبّشر بالنصر بصورة تجمع بين المعجزة الغيبية والسبب البشري في آنٍ واحد: «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مُمِدّكم بألف من الملائكة مُرِدفين» (سورة الأنفال: 9)، وفي توالي هذه الآيات تتجلى دلالة اسم الله المجيب، الذي استجاب لعبد يستغيث به في لحظة لم يبَق فيها أمام البشر حيلة سوى الدعاء.

وفي ليلة المعركة، أنزل الله مطراً خفيفاً ثّبت به الأرض الرملية تحت أقدام المسلمين وطّين الأرض أمام المشركين، كما تصفه الآية: «ويُنّزل عليكم من السماء ماءً ليطّهركم به ويُذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثّبت به الأقدام» (سورة الأنفال: 11). وفي تلك الليلة، فيما يُروى عن سعد بن أبي وقاص في وصفه لذلك المشهد، نام رسول الله صلى الله عليه وسلم نومة خفيفة قريبة من شجرة، يحرسه فيها أصحابه بدورهم، حتى استفاق عند الصبح يكّبر مستبشراً، وكأن سكينته في نومه تلك تحت تهديد ألف سيف كانت بنفسها معجزة لا تقل عن المطر الُمنزل ولا عن الملائكة الُمردفين.

ولما تراءى الجمعان، وقف النبي صلى الله عليه وسلم يسّوي صفوف أصحابه بيده، حتى عّدل رجلاً اسمه سواد بن زيد كان واقفاً أمام الصف بقليل، فطعن في بطنه بقدح كان معه ليسّويه بالصف قائلاً: استِق يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني، فكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال: اسَتِقد، فاعتنقه سواد وقّبل بطنه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما حملك على هذا؟ فقال: أردت أن يكون آخر العهد بك ملامسة جلدي جلدك. وفي هذا الموقف، الذي يجمع بين عدل لا يستثني فيه قائد الجيش نفسه من القصاص، ورقة لا تقل عنه إذ يكشف عن بطنه دون تردد، تكثيف لكل معاني عظمة الخلق التي رافقته في أحرج اللحظات.

وانتصر المسلمون نصراً حاسماً،ُقتل فيه من صناديد قريش منُقتل، وأُسر من أُسر، حتى جاء سؤال عّمنُقتل من سادتها، فلماُذكر له بعضهم، قال كلمة تحمل عبرة لمن يتأمل في زهد الدنيا عند أعدى أعدائها: "أولئك الملأ من قريش"، وكأن انتصار الحق على الباطل، وإن كان نصراً مفروحاً به، لم يخُل من تأمل حزين في مصير من عاشوا حياتهم على عداوة لم تنفعهم في شيء.

ولما جيء بالأسرى، رأى النبي صلى الله عليه وسلم من الرفق بهم ما يستحق التوقف عنده طويلاً: فقد أمر أصحابه أن يُحسنوا إليهم في الطعام والمبيت، حتى روى أحد الأسرى أنهم كانوا يُقّدمون له الخبز ويأكل المسلمون التمر إيثاراً له، تنفيذاً لوصية النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق بالأسرى رغم أنهم جاءوا لقتاله بالأمس القريب. وهكذا

انتهت غزوة بدر، أول اختبار حقيقي للسيف، لكنها لم تكن أبداً اختباراً للقلب الذي ظل، وسط صليل الحديد ودخان المعركة وحّر الصحراء، على رّقته الأولى لم يتزحزح عنها قيد أنملة.

◆ ❁ ◆

الفصل الثامن: عشر سنين لم يقل لي فيها لِمَ

بين معارك السيف وخطب الإنذار وآيات التشريع التي شّكلت الجانب الأكبر مما حفظ من سيرته صلى الله عليه وسلم، توجد زاوية أخرى أقل صخباً، لكنها ليست أقل دلالة: زاوية البيت الصغير، حيث لا جيوش ولا خصوم، بل صبي واحد قدمت به أمه أمُ سليم لتخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقبله، ونشأ في كنفه عشر سنين كاملة، هو أنس بن مالك، الذي سيصبح بعد ذلك أحد أوسع الرواة لأخلاق هذا الرجل في خاصة بيته، لا في علانية معاركه.

وقد وصف أنس تلك السنوات العشر بكلمة واحدة تختصر كل ما يمكن أن يُقال عن معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم لخادمه الصغير، فقال، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم: خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لي لشيء صنعته: لِمَ صنعت هذا؟ ولا لشيء تركته: لِمَ تركت هذا؟ وفي هذا التصريح وحده، الصادر من أقرب الناس إليه في خاصة معاملته، شهادة تتجاوز كل وصف خارجي يمكن أن يُكتب عن خلقه، لأنها شهادة من خبر الباطن لا الظاهر، ومن رأى الرجل في لحظات لا يُحسب فيها لأحد حساب، إذ يندر أن يحفظ خادم سيده على هذا النحو لو كان في معاملته السرية ما يخالف معاملته العلنية.

وقد رُوي عن أنس أيضاً، فيما يصف به دقائق هذه الرعاية اليومية، أنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقاً، فأرسلني يوماً لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت حتى أمّر بصبيان يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاي من خلفي، فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أُنَيس، أذهبت حيث أمرتك؟ قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله — وهذا الحديث الصحيح المتفق عليه عند مسلم يكشف عن مشهد إنساني بالغ السهولة في تلطفه: نبّي يحمل في عاتقه أعظم رسالة عرفتها الأرض، يضبط غلامه الصغير وهو يتسّلى بالسوق متهاوناً في مهمته، فلا يعّنفه ولا يزجره، بل يقبض على قفاه بمزاح يضحك منه هو نفسه، مستخدماً تصغير اسمه "يا أُنَيس" في وّد لا يخلو من تربية رفيقة.

وفي رواية أخرى لأنس، يصف كيف لم يكن هذا الرفق مقصوراً على المعاملة الشخصية، بل امتّد إلى الدعاء له بالخير، فقد قال: جاءت بي أمي أم سُليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أزرتني بنصف خمارها، ورّدتني ببعضه، فقالت: يا رسول الله، هذا أنس ابني أتيتك به يخدمك، فادُع الله له، فقال: اللهم أكثر ماله وولده، وبارك له فيما أعطيته — حديث صحيح متفق عليه عند البخاري ومسلم. وقد ذكر أنس بعد ذلك، وهو شيخ كبير، أن الله استجاب تلك الدعوة في حياته كلها، حتى رُوي أنه عّمر طويلاً، ورُزق من الولد والمال ما لم يُرزقه كثير من أقرانه، شاهداً حّياً على بركة دعاء لم يُنَس على مدى عقود من الزمن.

ولم يكن هذا الرفق في المعاملة الخاصة وقفاً على خدمه فحسب، بل ظهر أيضاً في تعامله مع جاريته الصغيرة في بيته، فقد ُروي عن أنس أنه قال: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب خادماً له، ولا امرأة، ولا ضرب شيئاً بيده إلا في سبيل الله، حديث صحيح متفق عليه، يصف فيه أنس عقداً كاملاً من المعايشة اليومية القريبة دون أن يسّجل خلاله مرة واحدة عنفاً بدنياً تجاه من هم في رعايته وتحت يده، رغم ما كان عليه أرباب البيوت في ذلك الزمن من تساهل عام في معاملة الخدم.

وفي هذا الفصل القصير، الذي لا يحمل معركة ولا خطبة، تكمن واحدة من أعمق الشهادات على عظمة هذا الرجل: أن من عاش معه طفلاً، ثم شاباً، ثم رجلاً، عشر سنوات كاملة، لم يجد ما يشكوه، بل وجد ما يرويه لأجياله القادمة فخراً واعتزازاً بسنوات قضاها في خدمة من لم يقل له يوماً "لِمَ".

◆ ❁ ◆

الفصل التاسع: أُحد

لم يكن نصر بدر، بكل عظمته، نهاية الطريق، بل كان بداية فصل جديد من فصول الصراع، إذ عادت قريش بجرحها الذي لم يلتئم تطلب الثأر لقتلاها وسادتها، وأقبلت في العام التالي بجيش يقارب ثلاثة آلاف رجل، تحمل معها ما لم تحمله في بدر من رغبة لا تشبه شيئاً سوى الحريق المكتوم سنة كاملة، وعلى رأسها أبو سفيان، وفي صفوفها هند بنت عتبة التي فقدت أباها وأخاها وعمها في بدر، تحمل في قلبها حقداً لا يقّل ضراوة عن السيوف المشحوذة حولها.

وقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في كيفية لقاء هذا الجيش، فمال هو إلى التحّصن بالمدينة، لكن أصحابه ممن لم يشهد بدراً وأراد أن ينال شرف الجهاد، رغبوا في الخروج إليهم، فنزل عند رأي أكثرهم رغم أنه لم يكن رأيه الأول، وفي هذا النزول وحده، الذي يجمع بين حكمة القائد وتواضعه أمام رغبة من معه، ما يستحق التأمل: أن يتنازل من بيده القرار الأخير عن اجتهاده الشخصي رفقاً بنفوس شابة تتعّجل الشهادة.

وخرج بجيشه نحو جبل أُحد، وفي الطريق، رأى غلاماً صغيراً اسمه رافع بن خديج تسّلق ليُرى بين المقاتلين رغبة في الجهاد، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم صغير

السن، أمر برّده، فقام أبوه يكفله فقال: يا رسول الله، إنه رِام، فأذن له، فلما رأى سمرة بن جندب ذلك بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: رّدني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجاز رافعاً، فقال أهله: إنه يصارع سمرة، فصارعه فصرعه، فأجازه النبي صلى الله عليه وسلم. وفي هذا المشهد، حيث يلتفت قائد جيش يواجه ثلاثة آلاف مقاتل إلى دموع صبيٍّ حرم من الجهاد، تتجلى رقة طبع لا تغيب حتى وسط أعظم الانشغالات.

وعند سفح الجبل، رّتب النبي صلى الله عليه وسلم خمسين رامياً بقيادة عبد الله بن جبير علىٰ ثغرة في الجبل، وأمرهم أمراً لا يحتمل التأويل: "احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تَبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تَبرحوا حتى أُنادِيكم" – كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري. وفي بداية المعركة، انهزم المشركون وأقبل المسلمون على الغنائم، فظّن أكثر الرماة أن المعركة قد انتهت، فتركوا موقعهم رغم نداء أميرهم عليهم بالبقاء، فانكشف ظهر المسلمين، فانقلب خالد بن الوليد بفرسانه من خلف الجبل، وتحّول النصر المبتدئ إلى فاجعة.

وفي خَضّم هذا الانكشاف، أصاب المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه بجراح بالغة، شّج وجهه وُكسرت رباعيته ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، حتى سقط في حفرة حفرها أبو عامر، فأخذ بيده طلحة بن عبيد الله يرفعه، ووقف أمامه أبو دجانة يستر بدنه بظهره من النبل حتى أنفذت فيه السهام وهو لا يتحرك، ومّص مالك بن سنان جراحه ليُزيل عنه الدم حتى ابتلعه. وفي هذا الاجتماع، حيث

يتسابق رجال على وقاية رجل واحد بأجسادهم، شهادة لا تحتاج إلى برهان آخر على حجم الحب الذي زرعه هذا الرجل في قلوب من حوله، حّباً لا يُصطنع تحت وقع السيوف.

وفي وسط هذا الألم، حينُسئل عن الدعاء على من فعل به ذلك، لم يدُع عليهم، بل قال ما رواه مسلم: "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" – وفي هذا الدعاء، الذي يُقال والدم يسيل من وجهه الشريف، تتكرر تلك السمة التي ظهرت في الطائف من قبل: أن يستجيب للجرح بالرحمة لا بالانتقام، وكأن الألم البدني، على شدته، لم يبلغ من نفسه ما يبلغ به انكسار قلبه على غفلة قومه.

ولما انتهت المعركة، وُعّد القتلى، وجد المسلمون حمزة بن عبد المطلب، عّم النبي وأسد الله، قدُقتل وُبتر بطريقة بشعة بأمر هند بنت عتبة ثأراً لأبيها، فحزن النبي صلى الله عليه وسلم عليه حزناً شديداً، حتى وقف على جثته باكياً، لكنه رغم ذلك الحزن البالغ لم يأمر بمثل ماُفعل بعّمه انتقاماً، بل ظل على ماُعرف به من ضبط النفس أمام أعظم المصائب الشخصية.

وفي طريق العودة، نزلت آيات تجمع بين تسلية القلوب المنكسرة وتحليل أسباب الهزيمة بصدق لا يجّمل الموقف: «ولقد صدقكم الله وعده إذ تُحّسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحّبون» (سورة آل عمران: 152)، وفي هذا الإقرار القرآني الصريح بأن المصيبة جاءت من تفريط بشري لا من

تخاذل إلهي، عبرة تستحق أن تُحفظ في كل نكسة تواجه أمة: أن تُراجع نفسها أولاً قبل أن تلوم قدرها.

وهكذا، بين جراح الجسد وانكسار النصر المنتظر، خرج المسلمون من أُحد بمرارة الهزيمة، لكنهم خرجوا أيضاً بعظمة الصبر الذي ظهر في قائدهم وهو ينزف، حين اختار، وسط كل ذلك الألم، أن يكون الرحمة لا السيف هو آخر ما يقوله عن قومه.

◆ ❁ ◆

الفصل العاشر: عدل لا يحيد، حتى في أشد الخصومات

بعد غزوة الأحزاب، التي حاصرت فيها قريش وغطفان ومن تبعهما المدينة في أعظم تحالف عسكري واجهه المسلمون، وبعد أن صرف الله كيد هذا التحالف بريح وجنود لم يرها أحد، نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم، فقال له وقد وضع المسلمون سلاحهم لتّوهم بعد أيام الحصار الطويلة: قد وضعَت السلاح؟ والله ما وضعناه، فاخرج إليهم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإلى أين؟ فأشار بيده نحو بني قريظة.

وكان بنو قريظة، تلك القبيلة اليهودية المستقرة في ضواحي المدينة، قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم منذ أول دخوله إليها على ألا يحاربوه وألا يظاهروا عليه عدواً، لكنهم في أحرج لحظة من حصار الأحزاب، حين كانت المدينة محاصرة من كل جانب وكان مصير المسلمين معّلقاً بخيط رفيع، نقضوا هذا العهد بتحريض من حيّي بن أخطب، وفاوضوا قريشاً وغطفان على مساعدتهم من الخلف، في وقت كان مثل هذا النقض أشّد ما يمكن أن يصيب جماعة محاصرة من خطر داخلي يهدد بفتح جبهة ثانية في ظهرها.

فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم في حصونهم خمساً وعشرين ليلة، حتى طال عليهم الأمر، فطلبوا أن ينزلوا على ما نزل عليه إخوانهم من بني النضير من قبلهم، أن يُجلوا عن ديارهم سالمين بما حملت إبلهم، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك هذه المرة، لما كان من توّرط حيّي بن أخطب وتحريضه في أخطر لحظة من تاريخ الدولة الناشئة، فاضطروا في النهاية أن ينزلوا على حكمه صلى الله عليه وسلم بلا شرط.

وهنا يقف الموقف عند نقطة تستحق التأمل العميق: فحلفاء بني قريظة من الأوس، الذين كانوا قد دخلوا الإسلام لكنهم لم ينسوا حلفهم الجاهلي القديم، توّسطوا للنبي صلى الله عليه وسلم أن يهبهم لهم كما وهب بني قينقاع لحلفائهم الخزرج من قبل. فلم يستأثر النبي صلى الله عليه وسلم بالقرار لنفسه، رغم أنه القائد الأعلى الذي بيده الفصل في كل أمر، بل سأل الأوس سؤالاً يكشف عن منهج عدل لا يخشى أن يُقاسم سلطته: ألا ترضون أن يحكم فيهم سيدكم سعد بن معاذ؟ فرضوا، رغم أن سعداً كان من الأوس نفسهم وحليفاً قديماً لبني قريظة، وكان في ذلك ضمان مزدوج: أن الحكم لن يكون من يد الخصم المباشر، وأن طرفاً له معرفة سابقة بالمحكوم عليهم هو من يفصل في أمرهم، لا انتقاماً متسّرعاً من القائد المنتصر.

وجاء سعد بن معاذ، وكان قد أُصيب بجراحة بليغة في الخندق لا يزال يعالجها، يحمله قومه على حمار وقد وّطؤوا له بوسادة، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم مقبلاً، قام له وقال للمسلمين: قوموا إلى سيدكم — وهذه الكلمة وحدها، أن يُكّرم

قائد الدولة كلها رجلاً مصاباً قادماً ليحكم في قضية هو نفسه أحد طرفيها سياسياً، تكشف عن احترام للحكم العادل يتجاوز اعتبارات اللحظة.

فحكم سعد، بعد أن استوثق من الطرفين أنهما سيرضيان بحكمه أياً كان، بأن تُقتل مقاتلتهم الذين شاركوا في نقض العهد والتآمر العسكري، وأن تُسبى ذراريهم ونساؤهم، وأن تُقّسم أموالهم، استناداً إلى نفس الشرط الذي كان مكتوباً في عهدهم الأول معه: أنهم إن نقضوا العهد فالنبي صلى الله عليه وسلم في حِلّ من دمائهم وأموالهم وذراريهم. فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحكم، لم يُعّدله ولم يُخّففه رغم أن سعداً كان متحالفاً بالأمس مع المحكوم عليهم، بل أقّره كاملاً وقال، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه: لقد حكمَت فيهم بحكم الله. وفي هذا الإقرار الكامل لحكم محّكم خارجي، حتى في قضية تخّص أمن دولته هو بنفسه، أعظم شاهد على أن العدل عنده صلى الله عليه وسلم لم يكن مفهوماً نظرياً يُلقى في الخطب، بل التزاماً عملياً يقبل به حتى حين يصدر عن غيره لا عن اجتهاده الشخصي.

وقد روى البراء بن عازب، في الحديث الصحيح المتفق عليه، أن النبي صلى الله عليه وسلم أُهديت لهُحّلة من حرير، فجعل أصحابه يمّسونها ويتعّجبون من نعومتها، فقال لهم معّلقاً على ما سيلقاه سعد بن معاذ في الآخرة جزاءً على عدله وصدقه: أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين. وقد توفي سعد بعد ذلك بأيام قليلة، إذ انفجر جرحه القديم فاسُتشهد، فحزن النبي صلى الله عليه وسلم عليه حزناً عميقاً، وشهد له بمنزلة رفيعة عند الله.

وفي هذا الفصل من السيرة، الذي يحمل ثقل قرار حربي صارم أُتخذ في ظرف استثنائي من تاريخ الأمة، يبرز جانب من شخصيته صلى الله عليه وسلم قّل من يلتفت إليه: أنه حتى في أحرج اللحظات، حين كان بيده أن يحكم بنفسه فيمن خانوه في أصعب وقت، اختار أن يُحّول القرار إلى تحكيم محايد طلبه الطرفان معاً، ثم التزم بنتيجته كاملة دون أن يستخدم موقعه لتغييرها، وهذا بالذات هو الفرق الجوهري بين السلطة التي تُمارَس بالاستئثار والسلطة التي تُمارَس بالعدل، حتى حين يكون العدل صعباً وثقيلاً على النفس.

◆ ❁ ◆

الفصل الحادي عشر: صلح الحديبية

مّرت السنوات بعد أُحد، وتوالت أحداث كثيرة بين كّر وفّر، حتى بلغت السنة السادسة من الهجرة، حين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه أنه يدخل مكة ويطوف بالبيت، فخرج بأصحابه – وعددهم نحو ألف وأربعمائة – لا لحرب، بل لعمرة يقصد بها بيت الله الحرام، محرماً، لا يحمل من السلاح إلا ما جرت به عادة المسافر، حتى ساق معه الهدايا التي تُعرف بها نّيته السلمية لكل من يراه في الطريق.

فلما سمعت قريش بمسيره، خشيت أن يكون هذا نوعاً من الكيد، فجمعت من حلفائها من تجّمع، وقررت أن تزّده عن البيت بكل ما تملك، وكان ذلك الموقف، حين يُمنع رجل من زيارة أقدس مكان في حياته رغم أنه أتى بسلام لا بسيف، من أصعب ما يمتحن به الصدر البشري، إذ يجمع بين الحرمان من الحلم العزيز والإهانة المتعّمدة في آن واحد.

وأرسلت قريش عثمان بن عفان رسولاً للتفاوض، فاحُتبس عند قريش حتى انتشر بين المسلمين أنهُقتل، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى بيعةُعرفت ببيعة الرضوان، يبايعونه فيها على القتال ولو إلى الموت، تحت شجرة، فأنزل الله فيها: «**لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل**

السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً» (سورة الفتح: 18). وفي هذا المشهد، حيث يبايع ألف رجل قائدهم على الموت دون تردد، يتجلى منٰبعد إنساني صرف ما يصعب تفسيره بمنطق المصلحة وحدها: أن يصل الحب بين قائد وأصحابه إلى درجة تتجاوز حساب البقاء.

ثم عاد عثمان سالماً، وجاء سهيل بن عمرو مفاوضاً عن قريش، فاتفقا على صلح هدنة مدته عشر سنين، تتضمن شروطاً بدت في ظاهرها قاسية على المسلمين: أن يرجع النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه عامهم هذا دون أن يدخلوا مكة، وأن من جاء من قريش إلى المسلمين مسلماً يُرّد إليهم، بخلاف من جاء من المسلمين إلى قريش فلا يُرّد. وحين بدأ سهيل يكتب الوثيقة، طلب أن تُمحى عبارة "بسم الله الرحمن الرحيم" وأن تُكتب "باسمك اللهم" كما تعرفها قريش، ثم طلب أن يُمحى وصف "رسول الله" وأن يكتب اسمه فقط "محمد بن عبد الله"، فوافق النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك كله، كما ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري في رواية البراء بن عازب، رغم أن في هذا التنازل ما يصعب على نفوس أصحابه قبوله، حتى احتّج بعضهم بشدة ولم يخِف عمر بن الخطاب امتعاضه، فقال عمر فيما رواه له بعد عشرين عاماً: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ ألسنا في الجنة وهم في النار؟ قال: بلى، قال: فِلَم نُعطي الدنية في ديننا؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بثقة من رأى ما لا يراه غيره: إني رسول الله، ولن يضّيعني الله أبداً.

وفي هذا الموقف، حيث يقبل قائد منتصر القلب وإن لم يُمنح النصر العسكري الكامل أن يتنازل عن لقبه ودينه في الكتابة، بل وعن دخول البيت الذي قطع المسافة كلها من أجله، تتجلى حكمة لم تُدرك ثمارها إلا بعد حين، فإن الصلح، الذي بدا في ظاهره غضاضة، فتح الباب لما لم يفتحه السيف من قبل: أماناً انتقل به الناس بين الفريقين بحرية، فدخل في الإسلام في تلك السنتين التاليتين أكثر ممن دخل فيه في كل السنوات التي سبقتها مجتمعة، حتى وصفها بعض من عاصرها بأنها كانت فتحاً أعظم من أي فتح بالسيف.

ومن أدّق المواقف التي تكشف عن رّقة قلبه وسط هذا التوتر السياسي الحادّ، ما حدث مع أبي جندل بن سهيل، الذي هرب من أبيه مسلماً يطلب اللجوء عند المسلمين بعد توقيع الصلح بساعات، فطالب أبوه سهيل برّده وفقاً للبند الذي ُوّقع للتو، فاضطر النبي صلى الله عليه وسلم إلى الالتزام بما وّقعه، فرّده إليهم وهو يواسيه: "يا أبا جندل، اصبر وتحّسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عقداً، وأعطيناهم على ذلك عهد الله، وإنا لا نغدر بعهدنا" — وفي هذه الكلمات، الموجعة لقائلها بقدر ما هي موجعة لسامعها، صدق لا يساوم على عهد حتى لو كّلفه ذلك أن يرّد مسلماً التجأ إليه بنفسه طالباً حمايته، فالوفاء بالعهد عنده لم يكن أقل شأناً من الرحمة بالضعيف، بل كان وجهاً آخر من نفس الخلق العظيم.

وهكذا انتهى صلح الحديبية، الذي بدا في لحظته انكساراً، وكان في حقيقته أعظم انتصار حكمة عرفته الدعوة، إذ آثر سلامة المستقبل البعيد على كبرياء اللحظة الحاضرة، وآثر الوفاء بالعهد على الانتصار للنفس، وآثر صبر أصحابه على غضبهم العابر.

◆ ❁ ◆

الفصل الثاني عشر: فتح مكة

لم يدم صلح الحديبية على مّدته المتفق عليها، فقد نقضت قريش العهد حين أعانت حلفاءها من بني بكر على الإغارة على خزاعة، حلفاء المسلمين، فُقتل منهم منْقتل وهم في حرم الله آمنون، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي يستصرخ النبي صلى الله عليه وسلم بأبيات شعر تستنهضه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما يحمل في بساطته يقيناً لا يتردد: نُصرت يا عمرو بن سالم. وفي تلك اللحظة بالذات، حيث يقرر رجل أن يسير بجيش إلى المدينة التيُطرد منها وأوذي فيها وعّذب أهله من أجلها، كان القرار قد اتخذ، لكن الطريقة التي سيُنَّفذ بها هذا القرار ستكشف عن وجه آخر من عظمة هذا الرجل لم يكشفه حتى أعظم انتصاراته السابقة.

تجّهز النبي صلى الله عليه وسلم بجيش عظيم بلغ نحو عشرة آلاف رجل، وسار به نحو مكة في سرّية تامة، حتى إذا اقترب منها أمر أصحابه أن يوقدوا نيراناً كثيرة على الجبال المحيطة بها، فلما رآها أبو سفيان بن حرب وهو لا يزال على شركه، خرج يتجسس الخبر، فُأخذ وأُتي به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رآه العباس بن عبد المطلب — عّم النبي الذي كان قد أسلم وأصبح وسيطاً بين الطرفين — أدرك خطورة الموقف، فاستأمنه له، فَقِبل النبي صلى الله عليه وسلم، وفي هذا القبول وحده، أن يُؤَّمن قائد

قريش الذي حارب النبي عشرين عاماً، إشارة مبكرة إلى ما سيحدث في الفتح كله: أن السيف الذي يحمله هذا الجيش الجّرار لن يُستخدم للانتقام، بل سيكون أداة لفتح لا يشبه أي فتح عرفته الحروب من قبله.

ولما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة، التيُطرد منها مهاجراً منذ ثماني سنوات، دخلها وهو خاشع متواضع، يطأطئ رأسه على ناقته حتى يكاد يلامس عنقها، ويُكثر من التلاوة والتسبيح، لا كظافر يتشّفى، بل كعبد يشكر، حتى تساءل من حوله: هل دخل هذا الانتصار العظيم على نفسه شيء من الزهو؟ فلم يجدوا فيه إلا مزيداً من الانكسار لله، وكأن أعظم الانتصارات لم تزده إلا تواضعاً، بينما تزيد أصغرها كثيراً من الناس كبراً.

وقد سأله سعد بن عبادة، وهو يحمل لواء الأنصار، أن يسمح له بالقول: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحّل الُحرمة، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فأرسل إلى ابنه قيس بن سعد فأخذ منه اللواء، وقال كلمة تحمل في طّيها كل مضمون الفتح: بل اليوم يوم تُعّظم فيه الكعبة، وكأنه بهذه الكلمة الواحدة قد رسم حدود ما سيكون عليه هذا اليوم العظيم، لا يوماً للثأر بل يوماً للعفو والإعظام.

ولما تمّكن من البلد التي لاقى فيها من العداء والاستهزاء والمقاطعة والتعذيب كل ما لاقاه، وقف خطيباً في أهلها الذين كانوا أعدى أعدائه، فقال، كما يثبته الحديث الذي رواه الواقدي وأهل السيرة جميعاً في هذا المشهد المتواتر: يا معشر قريش، ما تظّنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: اذهبوا فأنتم الطُّلقاء. وفي

هذه الكلمة الواحدة، التي لا تشبه شيئاً في تاريخ الفاتحين، عتق عام لمن لم يطلبوا عتقاً، وعفو شامل ممن كانت أمامه كل أسباب الانتقام متاحة دون أن يلومه عليها أحد.

ولم يكن هذا العفو عاماً غامضاً، بل امتّد إلى أشخاص بعينهم كانوا الأشد أذى له شخصياً، فقد عفا عن هند بنت عتبة التي بترت جسد عّمه حمزة، وعفا عن وحشي بن حرب الذي قتله، وعفا عن أبي سفيان نفسه قائد كل الحروب التي خاضتها قريش ضده، حتى دخل هؤلاء جميعاً في الإسلام بعد ذلك العفو، وكأن الرحمة التي أظهرها في لحظة قدرته الكاملة كانت هي نفسها السبب في تحّول قلوب ظّن كثيرون أنها لن تتحول أبداً.

وفي ذلك اليوم نفسه، اسُتقبل بالأطفال في طرقات مكة، فلم يمنعه الموقف المهيب ولا حشد الجيش العظيم من أن يتلطف معهم ويحملهم، كما تذكر الروايات الثابتة في هذا المشهد، وفي هذا التلطف وسط أعظم لحظة عسكرية وسياسية في حياته كلها، شهادة إضافية على أن قلبه لم يتغير بتغّير موازين القوة حوله، فالرجل الذي دخل بعشرة آلاف مقاتل هو نفسه الذي توقف ليمسح على رأس طفل.

وهكذا تحقق فتح مكة، لا بسيف يُشَهر، بل بعفو يُمَنح، فدخل أهلها في الإسلام طوعاً بعد أن رأوا في خصمهم القديم رحمة لم يتوقعوها، وأثبت بذلك أن أعظم الفتوحات ليست تلك التي تُذّل المهزوم، بل تلك التي تكسب قلبه.

❊ ✦ ❊

الباب الثالث: ملامح من الخُلق والمعجزة

❊ ✦ ❊

◆ ❁ ◆

الفصل الثالث عشر: ولنا الآخرة

في تلك السنوات التي بلغت فيها الدعوة أوسع انتشارها، حين أصبحت الجزيرة العربية كلها تقريباً تحت راية الإسلام، وحين كانت الوفود تأتي من كل جهة بالغنائم والهدايا والصدقات حتى امتلأت بها خزائن المسلمين، ظل بيت من بيوت المدينة، هو بيت من بيده كل ذلك الفيء، على حال لا تتغير: حصير خشن يفترشه، ووسادة من جلد محشّوة بالليف يضع تحتها رأسه، وَقَرظ يُستعمل لدبغ الجلود في زاوية الغرفة، وقبضة من شعير لا تتجاوز الصاع، هي كل ما يُرى في خزانته حين يدخلها أحد.

ودخل عليه عمر بن الخطاب يوماً، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم، فوجده على ذلك الحصير، وقد ترك أثره في جنبه الشريف من خشونته، فلم يجد عمر، وهو الرجل القوي الذي لا يلين أمام أعظم المخاطر، ما يصنعه أمام هذا المشهد إلا أن يبكي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ فأجابه عمر بكل ما يعتصر صدره: يا نبي الله، ومالي لا أبكي؟ وهذا الحصير قد أّثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته، وهذه خزانتك. فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم

بكلمة تختزل فلسفة كاملة في النظر إلى الدنيا: يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟

وفي هذا الحوار القصير، بين دمعة عمر وكلمة النبي صلى الله عليه وسلم الهادئة، يتجلى من العمق الإنساني ما يستحق التوقف عنده طويلاً: أن من بيده اليوم أزّمة جزيرة بأكملها، ومن صار اسمه يتردد من أقصى الجزيرة إلى أقصاها، لم ير في كل ذلك السلطان ما يستوجب تغيير فراشه، وكأن المسافة بين القوة والترف، التي يظن كثير من الناس أنها مسافة قصيرة لا بد أن تُقطع، كانت في نفسه مسافة لا نهاية لها، لا يقطعها أبداً.

وفي رواية أخرى لهذا الموقف نفسه، يضيف عمر تفصيلاً يكشف عن مدى ضيق ذلك البيت، فيقول: ثم رفعت بصري في بيته، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرّد البصر غير أُهِب ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ادُع الله فليوّسع على أمتك، فإن فارس والروم ُوّسع عليهم وأُعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم بهذا التوازن العقدي الذي لا يحسد أهل الباطل على َعَرض الدنيا مهما اتسع، ولا يطلب لأهل الحق أكثر مما قسمه الله لهم.

وقد روى أبو هريرة، فيما يصف به حال بيت النبي صلى الله عليه وسلم مع أهله في تلك الفترة نفسها، أن الشهر كان يمّر بعد الشهر ولا يُوقد في بيوتهم نار لخبز ولا لطبيخ، وأن طعامهم كان الأسودين، التمر والماء، وأن جيرانهم من الأنصار كانوا يرسلون إليهم أحياناً شيئاً من اللبن. وفي هذا الوصف، الذي يصدر من أقرب الناس

ملازمة لبيت النبي صلى الله عليه وسلم، ما يكشف أن هذا الزهد لم يكن موقفاً عابراً أُتخذ في لحظة معينة، بل كان نظاماً معاشياً مستمراً اختاره لنفسه ولأهل بيته طوال حياته، رغم أن أبواب الفيء والصدقات كانت مفتوحة أمامه لو شاء أن يأخذ منها لنفسه شيئاً.

وقد روى عبد الله بن مسعود مشهداً آخر من هذا النوع، حين قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثّر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظّل تحت شجرة ثم راح وتركها — حديث صحيح بهذا الإسناد. وفي هذا التمثيل، حيث يصف نفسه براكب يستظل لحظة ثم يمضي تاركاً الظل لمن يأتي بعده، فلسفة كاملة في النظر إلى الدنيا كمحطة عابرة لا كمقصد نهائي، وكأن كل ما رآه أصحابه من زهده الشخصي لم يكن قسوة على النفس بقدر ما كان وضوحاً تاماً في ترتيب الأولويات.

ولم يكن هذا الزهد، وهذا ما يستحق الإشارة إليه، انعزالاً عن الناس أو تركاً لأمور الدنيا جملة، فقد كان يدير شأن دولة كاملة، ويوّزع الفيء على أصحابه، ويستقبل الوفود، ويُعنى بكل تفصيل من تفاصيل أمته، لكنه فعل كل ذلك وهو يحرص أن يكون أبعد الناس عن نفسه في توزيع هذا الفيء، فلا يّدخر لنفسه ولا لأهل بيته فوق ما يقيم به الحياة اليومية الضرورية، تاركاً ما زاد عن ذلك لمن هم أحوج إليه من فقراء أمته ومحتاجيها.

وفي هذا الفصل، يكتمل ذلك النموذج الذي تابعناه منذ غار حراء إلى حصير المدينة: رجل لم تُبّدله القوة عن تواضعه، ولم يُغّير الفتح من زهده، ولم يجعله اتساع سلطانه يرى في الترف حّقاً له، بل ظل، في أعلى لحظات تمكينه، يفّضل أن تكون له الآخرة، ويترك الدنيا لمن يطلبها.

◆ ❁ ◆

الفصل الرابع عشر: في بيته كما هو في منبره

لو سأل سائل عن أصدق شاهد على خلق رجل، لم يكن الجواب في خطبته أمام الجماهير، ولا في قراره أمام الخصوم، بل في تلك الزاوية الخفية التي لا يراها أحد: بيته، حيث لا حشد يصّفق ولا خصم يُحاسب، بل زوجة تعرف كل تفصيل من تفاصيله، وأبناء يكبرون أمام عينيه يومّياً. وقد لّخص النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعيار بنفسه في كلمة قال فيها، كما رواه الترمذي وابن ماجه عن عائشة وصححه غير واحد من أهل العلم وإن لم تكن من رواية الصحيحين بهذا اللفظ: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي. وفي أن يجعل من معاملته لأهل بيته معياراً يقيس به الناس خيرّيتهم، إعلان واضح أن الخلق الحقيقي لا يُقاس بالعلن، بل بما يصنعه الإنسان في خفاء بيته.

وقد وصفت عائشة، أقرب زوجاته إليه وأكثرهن ملازمة له، حياته في بيته بكلمة بسيطة تحمل ثقلاً كبيراً، حينُسئلت عن صنعه صلى الله عليه وسلم في بيته، فقالت: كان في مهنة أهله — أي أنه كان يخدم نفسه بنفسه، يخصف نعله، ويرّقع ثوبه، ويُعين أهل بيته في أعمالهم، فلم يكن ذلك المقام الذي بلغه عند الناس حاجزاً بينه وبين أن يكون شريكاً فعلياً في تدبير شؤون بيته اليومية الصغيرة.

ولم يكن هذا التواضع في الخدمة وحده، بل امتّد إلى المزاح والمرح، فقد كان أحياناً يسابق زوجته عائشة بنفسه، كما تصف ذلك هي، فتقول: خرجت معه في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم، فقال للناس: تقّدموا، ثم قال لي: تعالي حتى أسابقك، فسابقته فسبقته، فسكت عني – وهي رواية صّححها غير واحد من المحققين كالألباني، رواها أبو داود وأحمد وابن ماجه. حتى إذا حملت اللحم بعد سنوات وزاد وزنها، سابقها مرة أخرى فسبقها هو، فجعل يضحك وهو يقول: هذه بتلك السبقة. وفي هذا المشهد، حيث يسابق قائد الأمة زوجته في طريق السفر، ويضحك معها وهو يسّوي حساب نتيجة سباق قديم، يتجلى من المرح الزوجي ما يهدم تماماً فكرة أن النبوة تستلزم جّدية متصلة لا تعرف الدعابة.

وفي تعامله مع أبنائه وأحفاده، تتجلى رّقة لا تقل عن رّقته مع زوجاته. فقد روى أبو هريرة، في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قّبل الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إني لي عشرة من الولد ما قّبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: من لا يرحم لا يُرحم. وفي هذه الكلمة القصيرة، الموّجهة لرجل يفتخر بعدم رحمته بأبنائه ظّناً منه أن في ذلك رجولة أو هيبة، تصحيح جذري لمفهوم خاطئ ساد في عرف ذلك الزمان، أن الرحمة بالطفل ضعف، بينما يعلن النبي صلى الله عليه وسلم أن غيابها هو الضعف الحقيقي، وأن الرحمة شرط لنيل الرحمة، لا نقيضاً لها.

ومن أرّق ما يُروى في تعامله صلى الله عليه وسلم مع أطفال بيته، ما يصفه أبو قتادة الأنصاري في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم، حين كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي بالناس إماماً وهو يحمل حفيدته أمامة بنت زينب على عاتقه، فإذا سجد وضعها على الأرض، وإذا قام عاد فحملها، يفعل ذلك حتى أتّم صلاته كاملة. وفي هذا المشهد، الذي يجمع بين أداء فرض من أعظم الفروض وحمل طفلة صغيرة متعّلقة بجّدها لا تريد أن تُترك، يتجلى مدى مرونة هذا الدين في تيسيره، ومدى رّقة هذا الرجل الذي لم ير في حاجة الطفلة الصغيرة ما يتعارض مع وقاره أمام جمع من المصلين خلفه.

وفي مشهد آخر من هذا النوع، رواه عبد الله بن شّداد عن أبيه بسند صحيح، أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى الناس حاملاً أحد ابَني ابنته، الحسن أو الحسين، فوضعه عند قدمه حين بدأ الصلاة، فلما سجد سجدةً أطالها حتى ظّن الناس أن أمراً قد حدث، رفع أحدهم رأسه من بين الصفوف فرأى الصبي قد ارتقى على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد، فرجع إلى سجوده. فلما انتهت الصلاة، سأله الناس عن سبب تلك السجدة الطويلة، فأجابهم بكلمة تكشف عن حّس أبوّي رقيق لم تُذهبه هيبة الإمامة ولا جلال الموقف: إن ابني هذا ارتحلني، فكرهت أن أُعجله حتى يقضي حاجته.

ولم يكن هذا الرفق مقصوراً على أحفاده، بل ظهر أيضاً في تربيته لأبنائه على الجّدية حين تستدعي المواقف ذلك، فقدُروي عن بريدة الأسلمي، فيما يصف به موقفاً آخر،

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب الناس يوماً، فأقبل الحسن والحسين، وعليهما قميصان أحمران، يعثران ويقومان وهما يحاولان السير، فلما رآهما النبي صلى الله عليه وسلم نزل من على منبره، فأخذهما، وصعد بهما، ثم قال للناس مستشهداً بآية من القرآن: صدق الله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، رأيت هذين فلم أصبر، ثم أخذ في خطبته. وفي هذا الموقف، حيث يقطع خطيباً عظيماً خطبته أمام جمع من المسلمين فقط لينزل ويحمل حفيديه المتعّثرين، اعتراف صريح وصادق بأن المشاعر الإنسانية تجاه الأبناء، وإن كانت تُسّمى في القرآن فتنة، ليست عيباً يُستحى منه، بل حقيقة بشرية يُقّر بها أعظم الناس قبل أن يطلب من الآخرين الانتباه لها.

وفي هذا الفصل، الذي يدخل إلى أخّص زوايا حياته، يتأكد ما تكرر معنا في كل فصول هذا الكتاب: أن عظمة هذا الرجل لم تكن قناعاً يُرفع أمام الناس ويُخلع في الخصوصية، بل كانت طبيعة واحدة مّتسقة، يراها زوجاته في بيته كما يراها الصحابة في ساحة المعركة، ويشهد بها أبناؤه وأحفاده كما يشهد بها أقرب الناس إليه، فلا تناقض بين الوجه العلني والوجه الخاص، وهذا بالذات أصدق برهان يمكن أن يُقَّدم على صدق دعوى الخلق العظيم.

◆ ❁ ◆

الفصل الخامس عشر: أصحابي

مواقف مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي

في خَضّم كل ما رافق النبي صلى الله عليه وسلم من معجزات الوحي ومواقف القيادة وثقل الرسالة، تبقى زاوية أخرى تستحق وقفة خاصة: علاقته بأولئك الرجال الذين أحاطوا به، آمنوا به قبل أن يؤمن العالم، وبادلوه حّباً لم يُخِف هو نفسه مثله. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم، رغم منصبه الذي لا يدانيه منصب، حريصاً على أن يقول لأصحابه بصراحة من يحب منهم، لا يخشى من ذلك تفضيلاً أو محسوبية، بل يراه إعلاناً صادقاً لحقيقة قلبه.

فقد قال، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم: لو كنت متخذاً من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر، ولكن أخي وصاحبي، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً. وفي هذا التصريح، الذي ينفي عن نفسه أن يكون لأحد من الخلق تلك المنزلة الخاصة جّداً التي تسمى الُخّلة لأنه لا يرى لقلبه انقطاعاً إلا إلى الله، ثم يُثبت لأبي بكر مع ذلك أعلى درجة الأخوة والصحبة، توازن دقيق بين توحيد القلب لله وحفظ حق الإخاء البشري في موضعه الصحيح.

وقد عّلل النبي صلى الله عليه وسلم هذا التفضيل بسبب واضح لا غموض فيه، فقال في الحديث الصحيح المتفق عليه: إن أمّن الناس علّي في صحبته وماله أبا بكر. وفي هذا التعليل، الذي يربط بين المحبة والمعرفة الطويلة المتراكمة من التضحية والوفاء، شاهد على أن حب النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لم يكن عاطفة عابرة، بل كان قائماً على أساس من تقدير دقيق لما قّدمه كل واحد منهم في طريق هذه الدعوة.

ولم يكن هذا الحب مقصوراً على أبي بكر وحده، فحين كان النبي صلى الله عليه وسلم يصف منزلة أصحابه بصورة عامة، استخدم تشبيهاً يحمل دلالة عميقة، إذ قال فيما ُروي عنه: أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم، وفي هذا التشبيه، الذي يصف به جماعة من الرجال العاديين بأنهم كنجوم السماء، رفعة لمكانتهم تتجاوز كل ما ُعرف من تواضع منزلة البشر العاديين عند أعظم القادة في التاريخ.

وقد ظهر حزنه على من فقد منهم بصورة لا تقل عن حبه لهم في حياتهم، فعندما اسُتشهد جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة في غزوة مؤتة، دخل النبي صلى الله عليه وسلم على بيت جعفر فأخبر أهله بمصيره، ثم أمر بصنع طعام لهم لأن الحزن قد شغلهم عن تدبير أمر أنفسهم، وفي هذا الحرص العملي وسط الحزن الشخصي، رعاية لا تكتفي بالكلام بل تتحول إلى فعل ملموس يخفف عن أهل الفقيد عبء الحياة اليومية في أصعب لحظاتها.

ومن أصدق ما يكشف عن طبيعة هذه العلاقة، أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يتحّرج من الإفصاح المباشر عن ترتيب محبته، حتى أمام من قد يُحرجهم هذا الترتيب. فقد روى عمرو بن العاص، في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه أميراً على جيش ذات السلاسل، فجاءه عمرو قبل خروجه للغزو وسأله: أي الناس أحّب إليك؟ فقال: عائشة. فقال عمرو: من الرجال؟ فقال: أبوها. قال: ثم من؟ قال: عمر. ثم عّد رجالاً، فسكت عمرو مخافة أن يجعله في آخرهم. وفي هذا الحوار القصير، تتجلى دلالة لطيفة: أن عمرو نفسه توقف عن السؤال خشية أن يسمع ترتيباً لا يسّره، وفي قبول النبي صلى الله عليه وسلم توقفه عند ذلك، احترام لحساسية السائل.

ومن المواقف الأخرى التي تكشف عن عميق محبته لأبي بكر، ماٰروي عنه صلى الله عليه وسلم في وصفه لتلك العلاقة الفريدة، حين قال فيما يُروى عنه: ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها، ما خلا أبا بكر، فإن له يداً يكافيه الله بها يوم القيامة. وفي هذا الاعتراف، أن يقول قائد الأمة كلها إنه عاجز عن مكافأة رجل واحد بعينه بقدر ما قّدمه له، وأن المكافأة الحقيقية لن تكون إلا من الله نفسه يوم القيامة، تقدير يتجاوز كل ما يمكن أن يُقال في وصف الوفاء بالكلام البشري المعتاد.

ولم تكن هذه المحبة محصورة في كبار الصحابة وحدهم، بل امتّدت إلى أبعد الناس نسباً وأقّلهم مكانة في عرف ذلك الزمان، فقد كان بلال بن رباح، الذي عرفناه في فصل سابق وهو يُعَّذب على الرمضاء، قد أصبح بعد الهجرة أقرب الناس إلى النبي صلى الله

عليه وسلم، حتى اختاره مؤذناً له، وسأله يوماً، كما يُروى في الصحيح، عن أحّب عمل يرجو ثوابه عنده، حرصاً منه على معرفة ما يجعل هذا الرجل، الذي كان عبداً منذوراً للتعذيب، ينال هذه المنزلة الرفيعة عند الله. وفي اختيار النبي صلى الله عليه وسلم لبلال بالذات، من بين كل الرجال، ليكون صوته هو ما يُسمع في كل أذان يدعو الناس للصلاة، إعلان عملي لا يحتاج إلى خطبة، بأن الميزان الجديد الذي جاء به هذا الدين لا يعرف فرقاً بين رجلٍ ولد سيداً ورجلٍ ولد عبداً.

وفي هذا الفصل، تتأكد حقيقة واحدة تتكرر في كل زاوية من سيرته: أن محبة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه لم تكن خطاباً عاماً غامضاً يُساوي بين الجميع دون تمييز حقيقي، بل كانت محبة واقعية، تُقّدر كل إنسان بحسب ما قّدمه وما يحمله من صدق، وتُعلن ذلك التقدير صراحة دون خوف من حساسية الموازنة، وفي الوقت نفسه تحفظ لكل واحد منهم كرامته وموضعه، حتى لمن لم يكن في صدارة الترتيب.

ومن أصدق ما يكشف عمق هذه المحبة، أن نقف عند مواقف فردية جمعت النبي صلى الله عليه وسلم بكل واحد من هؤلاء الأربعة الذين أصبحوا فيما بعد خلفاءه من بعده، فلكل واحد منهم في قلبه صلى الله عليه وسلم موضع خاص ظهر في موقف يخّصه.

فأما أبو بكر، فقد مّر بنا في غير موضع من هذا الكتاب رفقته للنبي صلى الله عليه وسلم في الهجرة وفي بدر، ومن أصدق ما يصف عمق تلك العلاقة موقف وقع بينهما حين حصلت بين أبي بكر وعمر بن الخطاب منازعة كلامية، فأسرع أبو بكر بالاعتذار

لعمر فلم يقبل عمر عذره، فذهب أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وسلم مهموماً، فتغّير وجه النبي صلى الله عليه وسلم غضباً لما حدث لصاحبه حتى أشفق أبو بكر نفسه من ذلك التغّير، فجثا على ركبتيه يقول: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري: إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟ مرتين. وفي هذا الموقف، حيث يغضب النبي صلى الله عليه وسلم لأجل صاحبه القديم الذي آمن به حين كّذبه الناس جميعاً، تذكير بأن الوفاء عنده صلى الله عليه وسلم لا ينسى أصل الفضل مهما طال الزمن.

وأما عمر بن الخطاب، فمن أرّق ما يُروى في علاقته بالنبي صلى الله عليه وسلم، الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري، حين كان النبي صلى الله عليه وسلم آخذاً بيد عمر، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحّب إلّي من كل شيء إلا من نفسي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحّب إليك من نفسك. فقال عمر، بعد أن تأمل في قوله: فإنه الآن، والله، لأنت أحّب إلّي من نفسي. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر. وفي هذا الحوار القصير، الذي يصّحح فيه النبي صلى الله عليه وسلم مفهوم عمر عن درجة المحبة الواجبة له، تعليم عملي لمعنى كمال الإيمان، أن يتقّدم حّب النبي صلى الله عليه وسلم على حّب النفس ذاتها.

وأما عثمان بن عفان، فقد ظهر فضله في مواقف الإنفاق التي لم يتردد فيها، فحين ضاق الناس بالمدينة لقلة الماء العذب وكانت بئر رومة ملكاً لرجل من اليهود يبيع منها

الماء بثمن غالٍ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين وله الجنة؟ فاشتراها عثمان بماله وجعلها سقاية للمسلمين جميعاً. وكذلك في غزوة تبوك، حين نظر النبي صلى الله عليه وسلم في وجوه أصحابه وهم يواجهون عسرة شديدة في التجهيز، فقال: من يجهّز هؤلاء، غفر الله له؟ فجهّز عثمان جيش العسرة كاملاً من ماله الخاص حتى لم يفقدوا خطاماً ولا عقالاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم، كما يصف ذلك من شهد الموقف: ما ضّر عثمان ما عمل بعد اليوم. وفي هذين الموقفين، حيث يلّبي عثمان نداء النبي صلى الله عليه وسلم بسخاء لا يتردد فيه، شاهد على ثقة متبادلة بين قائد يثق أن نداءه سيُلّبى، وصحابي يثق أن عطاءه لن يضيع عند الله.

وأما علي بن أبي طالب، فقد نشأ في بيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ صغره كما مّر في فصل سابق، وظهرت منزلته في أكثر من موقف، منها قوله صلى الله عليه وسلم له، كما يثبته الحديث الصحيح عند البخاري: أنت مني وأنا منك. ومنها موقف الراية يوم خيبر الذي مّر ذكره في فصل المعجزات، حين أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم الراية بعد أن عجز عنها غيره، واصفاً من سيُعطاها بأنه يحّب الله ورسوله ويحّبه الله ورسوله. وفي وصفه بهذا الوصف الرفيع قبل أن يُعرف اسمه، ثم تعيين علّي بعينه لها، شهادة مزدوجة: عامة في صفة من يستحق هذا الفضل، وخاصة في تعيين من تحققت فيه تلك الصفة فعلاً.

وفي هذه المواقف الأربعة مجتمعة، تتجلى حقيقة واحدة: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يكتفي بحب مجرد يكّنه في قلبه لأصحابه، بل كان يعّبر عنه بمواقف ملموسة، يغضب لصاحبه إذاٴظلم، ويصّحح فهم صاحبه لمعنى المحبة الحّقة، ويثق بصاحبه فيكّلفه أعظم التكاليف، ويشهد لصاحبه بأرفع الأوصاف، وكل ذلك دون أن يفّرق بينهم في أصل المحبة والتقدير، رغم اختلاف طبيعة كل علاقة وما تمّيزت به.

◆ ❁ ◆

الفصل السادس عشر: آيات في الكون والجماد

إلى جانب المعجزة الكبرى التي هي القرآن نفسه، وإلى جانب رحلة الإسراء والمعراج التي مّر ذكرها، أّيد الله نبّيه صلى الله عليه وسلم بآيات حسية أخرى، رآها أصحابه بأعينهم وحّدثوا بها من بعدهم، حتى بلغت من الكثرة والتواتر ما لا يدع مجالاً للشك في وقوعها. وهذا الفصل يقف عند ثلاث منها، تتفق جميعاً على أنها وقعت في صلب القرآن أو الحديث الصحيح المتفق عليه.

انشقاق القمر

سأل مشركو مكة النبي صلى الله عليه وسلم، في تحٍّد صريح يطلبون منه آية تثبت صدقه، فاستجاب الله دعوته بمعجزة لم يسبق لها نظير: انشّق القمر فلقتين، حتى رأى الناس الجبل بينهما. وقد روى ذلك عبد الله بن مسعود في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم، فقال: انشّق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـشّقتين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اشهدوا. وفي رواية أنس بن مالك، الصحيحة أيضاً عند مسلم: أن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين. وقد أّكد القرآن نفسه هذه الواقعة في مطلع

سورة سُّميت باسم هذا الحدث: «**اقتربت الساعة وانشّق القمر، وإن يروا آية يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمر**» (سورة القمر: 2-1).

وفي استمرار التكذيب رغم وضوح المعجزة، شاهد آخر على ما تكرر معنا في فصول سابقة: أن الآيات الحسية، مهما بلغت من الوضوح، لا تصنع الإيمان في قلب أغلقه الكبر، فالمشركون أنفسهم الذين رأوا القمر ينشق بأعينهم لم يزدهم ذلك إلا تكذيباً، وكأن المعجزة، حين تُعرض على قلبٍ معرض، تتحول إلى مادة لتأكيد عناده بدل أن تكون سبباً لهدايته.

نبع الماء من بين أصابعه

تكرر هذا النوع من المعجزات في أكثر من موضع، وأشهرها ما حدث في غزوة الحديبية، حين عطش الناس وليس بين أيديهم ماء إلا ركوة صغيرة بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، فجاء الناس نحوه مذعورين من شدة العطش، فسألهم: ما لكم؟ فقالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده الشريفة في تلك الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون، حتى شرب القوم جميعاً وتوّضؤوا. وقدسُئل جابر بن عبد الله، الذي روى هذا الحديث، عن عددهم في ذلك اليوم، فقال: لو كّنا مئة ألف لكفانا، كّنا خمس عشرة مئة.

وفي رواية أخرى، يصف أنس بن مالك مشهداً مشابهاً حين حانت صلاة العصر فلم يجد الناس وضوءاً، فأُتي بإناء فوضع النبي صلى الله عليه وسلم يده فيه وأمرهم أن

يتوّضؤوا، فرأى أنس الماء ينبع من تحت أصابعه حتى توّضأ الناس عن آخرهم. وكلا الحديثين صحيح متفق عليه عند البخاري ومسلم.

وفي هذه المعجزة بالذات، ما يستحق التوقف عنده: أن الماء لم ينبع من حجر، كما حدث مع موسى عليه السلام حين ضرب الحجر بعصاه، بل نبع من بين أصابع لحم ودم، وهذا، كما لاحظ بعض من تأمل في هذه المعجزات، أبلغ في الدلالة، لأن خروج الماء من الحجارة أقرب إلى المعهود من خروجه من بين أصابع إنسان، فكانت المعجزة في موضعها الأدق إعجازاً متجّدداً.

حنين الجذع

كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في أول عهده بالمدينة مسقوفاً على جذوع من النخل، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يستند إلى جذع منها، حتىٰ صنع له منبر فانتقل إليه، فسمع الصحابة من ذلك الجذع صوتاً يشبه حنين الناقة التي فقدت ولدها، حتى نزل النبي صلى الله عليه وسلم من منبره فوضع يده عليه، فسكن. وهذا ثابت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري من رواية جابر بن عبد الله وعبد الله بن عمر، وفي رواية ابن عباس، التي صّححها بعض أهل العلم على شرط مسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للجذع، حين احتضنه فسكن: لو لم أحتضنه لحّن إلى يوم القيامة.

وفي هذا المشهد، حيث يحّن جماد لا يعقل لفراق النبي صلى الله عليه وسلم حتى يضطرب اضطراب الكائن الحي، دلالة على مكانة هذا الرجل عند الله تتجاوز قدرة

الكلام البشري على وصفها، وقد عّلق الحسن البصري على هذا الحديث، كما يُروى عنه، بكلام يحمل وعظاً عميقاً حين كان يبكي عند ذكره ويقول: يا عباد الله، الخشبة تحّن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شوقاً إليه، فأنتم أحّق أن تشتاقوا إلى لقائه.

وفي هذه المعجزات الثلاث، التي شهدها مئات الصحابة ورواها أصدق رواة الحديث، إعلان متكرر بصور مختلفة على حقيقة واحدة: أن الكون كله، من القمر في السماء إلى الماء بين الأصابع إلى الجذع اليابس في الأرض، كان مهّيأ ليشهد لهذا الرجل بصدقه، حتى لو ظل بعض من رآه بعينه مكّذباً.

◆ ❁ ◆

الفصل السابع عشر: علاقته بالقرآن

لم يكن القرآن، في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، نّصاً يُتلى في وقت محدد ثم يُترك، بل كان نسيجاً يسري في كل تفاصيل يومه: في صلاته، وفي كلامه، وفيُخُلقه نفسه. وقدُسئلت عائشة رضي الله عنها يوماً عنُخُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم تجد وصفاً أدّق من أن تقول: كانُخُلقه القرآن. وفي هذا الوصف القصير، الذي يساوي بين شخص الرجل وبين الكتاب الذي يحمله، إعلان بأن القرآن لم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم كلاماً يُبَّلغ للناس فحسب، بل كان هو نفسه يتشّكل بمعانيه حتى أصبح سلوكه ترجمة عملية لكل ما فيه من رحمة وعدل وصدق.

وقد كانت قراءته صلى الله عليه وسلم للقرآن تحمل صفة خاصة لازمته في كل أحواله: الترتيل والتمهل، لا العجلة والسرعة. فقد وصفت عائشة قراءته بقولها: كان يقرأ السورة فيرّتلها، حتى تكون أطول من أطول منها. وفي الحديث الصحيح عند البخاري،ُسئل أنس بن مالك عن قراءة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: كانت مّداً، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم، يمّد بسم الله، ويمّد الرحمن، ويمّد الرحيم. وفي رواية أم سلمة، أنها ُسئلت عن قراءته فقالت: كان يقّطع قراءته آية آية. وفي هذا الوصف المتكرر من أكثر من راٍو، صورة لرجل لا يتلو القرآن بصوت عابر يسبق فيه الكلام إلى آخره، بل يقف عند

كل آية، يمّد ما يستحق المد، ويُفصل بين المعاني فصلاً يسمح للسامع أن يتدّبر كل جزء بمفرده قبل أن ينتقل إلى التالي.

وكان صوته بالقرآن من أحسن ما ٌسمع، حتى قال البراء بن عازب، في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ والتين والزيتون في العشاء، وما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه أو قراءة. وفي هذه الشهادة من رجل عاصر الصحابة جميعاً وسمع أصواتهم بالقرآن، تفضيل صريح لصوت النبي صلى الله عليه وسلم على كل ما سمعه من غيره، رغم أن من بين الصحابة منْ عرف بحسن الصوت وعظيم التأثير في القراء.

ولم يكن هذا الحسن في الصوت زخرفاً فنياً منفصلاً عن المعنى، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم نفسه يربط بين الجمال الصوتي وخشوع القلب، فقد كان يصف من أحسن الناس قراءة بقوله، فيما يُروى عنه: إن من أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله، وكأن الصوت الحسن، في تصوره، ليس هدفاً في ذاته، بل ترجمة سمعية لخشوع داخلي يحّسه السامع قبل أن يفهم معنى الآية نفسها.

وحين تأثره الشخصي بالقرآن، تُروى عنه مواقف تكشف عن قلب يهتّز بما يتلوه أو يسمعه من كتاب ربه، فقد كان يقوم الليل يقرأ بصوت يحمل الأنين، حتى ُروي عن بعض من سمعه أنه كان يقرأ ويبكي، في صلاته الفردية بالليل، تأثراً بما يتلوه من آيات الوعد والوعيد، وهو سلوك ثابت عنه في عبادته الخاصة وإن لم يكن خبراً واحداً بعينه

محصوراً في رواية واحدة من الصحيحين، بل سياقاً عاماً تواترت عليه أوصاف عبادته الليلية.

وفي هذا الفصل، الذي يختم سلسلة فصول هذا الكتاب عن جوانب متعددة من شخصه صلى الله عليه وسلم، يتجلى ما يجمع كل ما سبق معاً: أن القرآن لم يكن كتاباً يحمله النبي صلى الله عليه وسلم منفصلاً عن نفسه، بل كان هو الصورة الصوتية لذلك الُخلق العظيم الذي رأيناه يتجّسد في رحمته بالضعفاء، وعدله مع الأقوياء، ورّقته مع أهل بيته وأصحابه: كان ُخلقه القرآن، وكان القرآن، في صوته وترتيله وتأثره به، مرآة صادقة لروحه.

◆ ❁ ◆

الفصل الثامن عشر: لا تغضب — التأني والكرم والحلم

إلى جانب ما مّر في فصول سابقة من رحمته بالضعفاء وعدله مع الأقوياء وزهده في الدنيا، تبقى زاوية أخرى من خُلقه صلى الله عليه وسلم تستحق وقفة مستقلة: تلك المواقف التي تكشف عن تربيته الفذة في التأني وضبط النفس، وفي الكرم الذي لا يعرف حّداً، وفي الحلم الذي يقابل به أعنف صور الجفاء بابتسامة لا بانتقام.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كما يثبته الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة، فقال له: أوصني، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تغضب، فرّدد الرجل سؤاله مراراً يطلب وصية أخرى، وفي كل مرة كان الجواب نفسه: لا تغضب. وفي هذا التكرار، الذي يصّر فيه النبي صلى الله عليه وسلم على وصية واحدة رغم إلحاح السائل في طلب المزيد، حكمة بالغة: أن الغضب، إذا أُحسن ضبطه، يحمل معه ضبط أكثر الرذائل الأخرى، فمن ملك نفسه عند الغضب ملك زمام أكثر ما يوقع الناس في الذنوب والقطيعة والندم.

وقد بّين النبي صلى الله عليه وسلم علاج هذا الداء بنفسه حين مّر يوماً برجلين يتسابّان، حتى احمّر وجه أحدهما وانتفخت أوداجه من شدة الغضب، فقال صلى الله عليه وسلم، فيما ثبت في الصحيح المتفق عليه: إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ذهب عنه ما يجد. وفي هذا التوجيه، الذي يربط بين فورة الغضب البشرية ونزغ الشيطان، علاج عملي بسيط لا يحتاج أكثر من كلمة، لكنه يحتاج وعياً بمصدر هذا الانفعال قبل أن يتمكن من صاحبه.

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يحّب العجلة في الأمور، بل كان يحّض على الرفق والتأني في كل شأن، حتى قال فيما ُروي عنه: إن الله يحب الرفق في الأمر كله. وكان صلى الله عليه وسلم بنفسه نموذجاً لهذا التأني، فلا يستعجل في حكم، ولا يتسّرع في رد فعل، بل يتمّهل حتى يتبّين له الأمر على حقيقته. وقد ظهر هذا جلّياً في تعامله مع أكثر القضايا حساسية، حيث كان يستمع للخصوم قبل أن يحكم، ويتثّبت من الأخبار قبل أن يصّدقها، وهذا بالذات ما مّيز قيادته عن كثير ممن سبقوه أو عاصروه، ممن كانوا يحكمون بالغضبة الأولى لا بالتروي الذي يكشف الحقيقة كاملة.

قال جابر بن عبد الله، في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم، في وصف كرم النبي صلى الله عليه وسلم بكلمة موجزة تختصر كل ما يمكن أن يُقال في هذا الباب: ما ُسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط فقال: لا. وفي هذه الشهادة، من رجل عاش قريباً منه سنوات طويلة، اعتراف بأن هذا الرجل، رغم كل ما

مّر به من فقر شخصي اختاره لنفسه، لم يكن يوماً بخيلاً على من يسأله، حتى لو كان ما يملكه قليلاً.

وقد بلغ من كرمه صلى الله عليه وسلم أنه أعطى رجلاً غنماً كثيرة ملأت ما بين جبلين، حتى رجع ذلك الرجل إلى قومه يقول لهم: يا قوم أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر — وهذا الحديث رواه مسلم عن أنس بن مالك. وكان ابن عباس، حين ُسئل عن جود النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه، يصفه بقوله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في شهر رمضان حين يلقاه جبريل، فيدارسه القرآن — حديث صحيح متفق عليه عند البخاري. وفي وصفه بأنه كان أجود من الريح المرسلة في تلك الأيام المباركة، تشبيه يلتقطه أكثر من راوٍ، يصف عطاءً لا يتوقف ولا يُحصى ولا ينتظر مقابلاً.

من أعظم المواقف التي تكشف عن حلم النبي صلى الله عليه وسلم وصبره على الجفاء، ما رواه أنس بن مالك في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم، قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أّثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، ُمر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، ثم أمر له بعطاء.

وفي هذا الموقف، الذي يجمع بين جفاء بدوّي غليظ لا يعرف رقة الحديث المهذب، وبين إيذاء جسدي مباشر ترك أثره على عنق النبي صلى الله عليه وسلم نفسه، اختار النبي صلى الله عليه وسلم أن يرّد بالضحك لا بالغضب، وبالعطاء لا بالزجر. ولم يكتِف بكظم غيظه، بل أكرم من أساء إليه، في درس عملي لا يُنسى عن معنى الحلم: أنه ليس مجرد كتمان الغضب، بل تحويل لحظة الإساءة نفسها إلى فرصة للإحسان.

ومن المواقف المشابهة، ما رواه أبو هريرة، حين جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستعينه في شيء، فأعطاه، ثم سأله النبي صلى الله عليه وسلم: أحسنُت إليك؟ فقال الأعرابي بجفاء: لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون من حوله وقاموا إليه، فأشار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يكّفوا عنه، ثم دخل منزله، وأرسل إلى الأعرابي فدعاه، وزاده عطاء، ثم سأله مرة أخرى: أحسنُت إليك؟ فقال الأعرابي هذه المرة: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي شيء من ذلك، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدّي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك، فقال: نعم. فلما جاء الغد، قال النبي صلى الله عليه وسلم للناس: إن صاحبكم هذا كان جاء فسألنا فأعطيناه، وقال ما قال، وأنا دعوناه إلى البيت فأعطيناه فزعم أنه قد رضي، أكذلك؟ فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

وفي هذا الموقف المرّكب، حيث لا يكتفي النبي صلى الله عليه وسلم بالصفح عن جفاء الأعرابي، بل يحرص أيضاً على إصلاح ما وقع في نفوس أصحابه تجاهه، حكمة

قيادية عميقة: أن العفو الشخصي لا يكفي وحده إن ترك أثراً سّيئاً في نفوس الجماعة، فاحتاج الأمر إلى معالجة مزدوجة، تطيب بها نفس المسيء وتطمئن بها قلوب من غضبوا له.

وفي هذه المواقف مجتمعة، يتجلى نموذج كامل لُخُلق لم يكن يعرف العجلة في الحكم، ولا البخل في العطاء، ولا الانتقام من الجفاء، بل كان في كل ذلك يطّبق على نفسه أولاً ما أوصى به غيره: لا تغضب، وأعِط، واصفح، وفي هذا الثالوث من الأخلاق يكمن جوهر كل تعامل إنساني راِق عبر العصور.

الباب الرابع: المعارك والغزوات

◆ ❁ ◆

الفصل التاسع عشر: جميع غزواته صلى الله عليه وسلم

اختلف أهل السير في عدد ما غزاه النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، فقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم أن أبا إسحاق السبيعي سأل زيد بن أرقم: كم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة؟ فقال: تسع عشرة، قال: فكم غزوت أنت معه؟ قال: سبع عشرة. أما الواقدي وابن سعد من أهل السير، فقد عدّا له صلى الله عليه وسلم سبعاً وعشرين غزوة، باعتبار كل خروج له بنفسه - ولو لم يقع فيه قتال - غزوة مستقلة. وهذا الفصل يسرد الغزوات بالترتيب الزمني، لكنه لا يقف عند سرد الوقائع وحدها، بل يتوقف عند ما فيها من جانب إنساني وعاطفي، فإن المعارك التي خاضها هذا الرجل لم تكن أبداً مجردة من الدموع والابتسامات والمواقف التي تكشف القلب البشري في أصدق حالاته.

الغزوات الأولى: استطلاع واستعداد (السنة الثانية للهجرة)

بعد أن أُذن للمسلمين بالقتال، خرج النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة الأبواء، وهي أول غزوة غزاها بنفسه، يعترض فيها قافلة لقريش، فلم يلَق حرباً وعقد فيها حلفاً مع

بني ضمرة. ثم غزوةُ بواط وغزوةَ سَفوان، وكلتاهما خرج فيهما يطلب قافلة لقريش فلم يُصب قتالاً. ثم غزوة العَشيرة، أقام فيها شهراً وعقد فيها حلفاً مع بني مدلج، وعاد دون قتال أيضاً. وفي هذه الخطوات الأولى، الهادئة الخالية من سفك الدم، ما يكشف أن السيف لم يكن أول ما فّكر فيه هذا القائد الجديد، بل كانت الأحلاف والاستطلاع والصبر هي خطواته الأولى، وكأنه يتدّرج بأصحابه في تجربة القتال كما تدّرج بهم من قبل في تجربة الإيمان.

بدر، وبنو قينقاع، والسويق (السنة الثانية)

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من السنة الثانية، وقدُفّصلت تفصيلاً في فصل سابق من هذا الكتاب، بدمعة النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه قبل المعركة، وبرفقه بأسرى قريش بعدها. وبعدها بأشهر، غزوة بني قينقاع، حين نقضت هذه القبيلة اليهودية عهدها مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن اعتدى أحد رجالها على امرأة مسلمة في سوقهم، فحاصرهم النبي صلى الله عليه وسلم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمه، فأجلاهم عن المدينة دون أن يسفك دماً، رغم أن النقض كان واضحاً. ثم غزوة السويق، خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم في أثر أبي سفيان بن حرب الذي أغار على ضواحي المدينة منتقماً لهزيمة بدر، فهرب أبو سفيان تاركاً أزواد السويق، فُسّميت الغزوة بذلك.

أُحد وما بعدها (السنة الثالثة)

سبقت غزوة أُحد غزوتا ذي أَمّر والفرع من بُحران، خرج فيهما النبي صلى الله عليه وسلم لتفريق تجمعات بعض القبائل دون قتال يُذكر. ثم كانت غزوة أُحد في شوال من السنة الثالثة، وقد فُصّلت في فصل سابق من هذا الكتاب: دمه الشريف يسيل من وجهه، وأصحابه يتسابقون لوقايته بأجسادهم، ودعاؤه لقومه بالمغفرة لا بالهلاك.

وبعدها مباشرة، غزوة حمراء الأسد، خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم بمن أصابه القتال في أُحد نفسه، رغم جراحهم الطرية، ليُظهر لقريش أن جراح المسلمين لم تُضعف عزيمتهم، فبلغ أبا سفيان خبر خروجه فلم يجرؤ على العودة. وفي أن يحمل رجال جراحهم لم تجّف بعد، استجابة لنداء قائدهم، أصدق شهادة على رابطة لا تصنعها القوة بل المحبة.

ثم غزوة بني النضير، إذ نقضت هذه القبيلة اليهودية أيضاً عهدها، حتى هّم بعضهم باغتيال النبي صلى الله عليه وسلم في زيارة له إليهم - أرادوا أن يُلقوا عليه صخرة من فوق سطح وهو جالس تحته يتحدث إليهم في أمر دية، فعصمه الله بأن أُخبر بكيدهم فقام منصرفاً قبل أن ينفذوه - فحاصرهم وأجلاهم عن المدينة، وفي شأنهم نزلت سورة الحشر.

بنو النضير وبدر الموعد (السنة الرابعة)

ثم غزوة بدر الآخرة، المعروفة ببدر الموعد، خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم تنفيذاً لموعد بينه وبين أبي سفيان بعد أُحد، فوافى الموعد بجيشه، لكن أبا سفيان عاد بجيشه من نصف الطريق، فعقد المسلمون في تلك السوق صفقات تجارية

مفيدة وعادوا سالمين، وفي وفاء النبي صلى الله عليه وسلم بموعد قتال مع عدوه رغم خطره على نفسه، صدق العهد حتى مع الخصم.

دومة الجندل وبنو المصطلق والأحزاب وبنو قريظة (السنة الخامسة)

في غزوة دومة الجندل، خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تلك المنطقة البعيدة شمالاً حين بلغه أن أهلها يهّمون بالإغارة على أطراف المدينة، فهرب أهلها عند سماعهم بقدومه. ثم غزوة بني المُصطلق، حين بلغ النبي صلى الله عليه وسلم تجّمعهم للهجوم عليه، فبادرهم بالهجوم وهزمهم. ثم غزوة الأحزاب، المعروفة بالخندق، حين تحالفت قريش وغطفان ومن تبعهم في أعظم تجمع عسكري ضد المسلمين، فحفر النبي صلى الله عليه وسلم خندقاً حول المدينة بمشورة سلمان الفارسي، وصرف الله كيد الأحزاب بريح شديدة دون قتال كبير، وفي تلك الأيام العصيبة من الحصار والجوع، كان النبي صلى الله عليه وسلم يحفر مع أصحابه بيده، يحمل التراب كما يحمله أفقرهم، حتىٰ ربط على بطنه حجر من شدة الجوع. ثم غزوة بني قريظة مباشرة بعدها، وقد فّصلت تفصيلاً كاملاً في فصل سابق من هذا الكتاب، بحكم سعد بن معاذ المصاب وثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليه.

بنو لحيان وذو قَرد والحديبية (السنة السادسة)

في غزوة بني لحيان، خرج النبي صلى الله عليه وسلم يطلب الثأر لبعض أصحابه الذين ُقتلوا غدراً قبل سنوات، فهرب القوم إلى رؤوس الجبال. ثم غزوة ذي قَرد، حين أغار عيينة بن حصن الفزاري على إبل النبي صلى الله عليه وسلم في ضواحي المدينة،

فتعّقبه المسلمون واسترّدوا بعض الإبل. ثم غزوة الحديبية، وقدٌفّصلت تفصيلاً كاملاً في فصل سابق، بدموع المسلمين على بيعة الموت تحت الشجرة، وبألم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يرّد أبا جندل إلى أبيه وفاءً بعهد لم يمِض عليه إلا ساعات.

خيبر: الراية والرمد والعروس (السنة السابعة)

غزوة خيبر من أعظم الغزوات بعد الكبرى الثلاث، إذ خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى تلك الحصون اليهودية المنيعة شمال المدينة، بعد أن كانت مصدر تحريض دائم على المسلمين. وفي هذه الغزوة وقعت واحدة من أعذب المشاهد الإنسانية في تاريخ السيرة كلها: فقد حاصر المسلمون حصن القموص، أعظم حصون خيبر، وعجز عن فتحه من تقّدم له، حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر برايته فقاتل ورجع دون فتح، ثم بعث عمر فقاتل ورجع دون فتح أيضاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم كلمة أحرقت قلوب من حوله شوقاً لأن يكونوا صاحبها: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه، ليس بفرار. فتطّلع كل رجل من أصحابه أن يكون هو ذلك الرجل، حتى باتوا ليلتهم يتساءلون لمن ستكون.

وكان علي بن أبي طالب قد تخّلف عن الخروج تلك الليلة لشدة ما به من رمد في عينيه حتى كان لا يكاد يرى، فلما سمع كلام النبي صلى الله عليه وسلم، قال في نفسه: أنا أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فلحق به رغم عينيه المعصوبتين بشّقة من ثوبه. فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما لك؟ فقال: رمدت بعدك، فقال:

ادُن مني، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ في تلك اللحظة حتى كأن لم يكن به وجع قط، فأعطاه الراية، ومضى بها حتى فتح الله عليه ذلك الحصن المنيع.

وفي خيبر أيضاً، ُسبيت صفية بنت ُحيي بن أخطب، وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول، فقد تزوجها كنانة بن أبي الحقيق قبل أيام من الغزوة، فُقتل زوجها في المعركة، وأصبحت في سبي المسلمين في يوم واحد فقدت فيه زوجها وقومها وحريتها معاً. فعرض النبي صلى الله عليه وسلم عليها الإسلام، فأسلمت، فأعتقها وتزوجها وجعل عتقها مهرها. ولما خرج بها من خيبر عائداً إلى المدينة، أراد أن يبني بها في الطريق، فأبت عليه أول مرة، فلما سألها عن سبب امتناعها، أجابته بما يكشف عن قلب لم يزل يفّكر في سلامته رغم كل ما أصابها: خشيت عليك من قرب اليهود. فعظم ذلك في نفسه صلى الله عليه وسلم، وفي هذا الجواب من امرأة فقدت كل شيء في يوم واحد، ومع ذلك كان أول ما يشغل بالها سلامة من تزوجها، أصدق شهادة على أن المحبة قد تنبت في أرض أقسى الظروف.

وقد بصق النبي صلى الله عليه وسلم في عيني علي فبرأ من الرمد في لحظة واحدة، وهذه من أعظم خوارق العصمة التي أّيد الله بها رسوله، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح. واسُتشهد في هذه الغزوة عدد من الصحابة، منهم عامر بن الأكوع، الذي رجع سيفه عليه فقطع أكحله فمات بيده هو لا بضربة عدو، فقال بعض الناس: بطل عمله، انتحر بنفسه، فبلغ ذلك ابن أخيه سلمة بن الأكوع، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يبكي، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: من قال ذلك؟ فقال: نفر من أصحابك.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم بحزم من ينصر الغائب ويصّحح الخطأ: كذب من قال ذلك، بل له أجره مرتين. وفي هذا التصحيح السريع لشائعة ظالمة عن رجل مات، رحمة بسمعة الميت وتطييباً لقلب من بكى عليه.

ذات الرقاع والفتح وحنين والطائف (السنة السابعة والثامنة)

غزوة ذات الرقاع، خرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم لقتال بعض قبائل نجد المتجمعة،ُسّميت بذلك لأن أقدام بعض الصحابة تشققت من المسير فلّفوا عليها الرقاع. ثم غزوة فتح مكة، وقدُفّصلت تفصيلاً كاملاً في فصل سابق من هذا الكتاب، بعفوه عن أهل مكة الذين أخرجوه طريداً.

ثم غزوة حنين مباشرة بعدها بأيام، حين تجمعت هوازن وثقيف بجيش كبير لقتال المسلمين. وفي هذه الغزوة وقع أحد أعنف الامتحانات النفسية التي خاضها المسلمون، فقد كمن لهم العدو في مضايق الوادي، فلما انحدر المسلمون في عماية الصبح، انهالت عليهم السهام من كل جانب فجأة، فانكشف الصّف وفّر أكثر الجيش هارباً في فوضى لم يعرف المسلمون مثلها من قبل، حتى بقي النبي صلى الله عليه وسلم تقريباً وحيداً، لا يثبت معه إلا نفر قليل جداً من أهل بيته وأقرب أصحابه: أبو بكر، وعمر، وعلّي، والعباس عّمه وابنه الفضل، وأبو سفيان بن الحارث، وأسامة بن زيد، وآخرون لا يتجاوز عددهم بضعة عشر رجلاً، وسط جيش كان قبل لحظات يُقَّدر بآلاف.

وفي تلك اللحظة الرهيبة، حيث يُحتمل أن ينفرط كل شيء، لم يفّر النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتزحزح، بل أركض بغلته نحو صفوف العدو نفسه وهو يقول، كما ثبت في الحديث الصحيح عند البخاري: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب. وكان عمه العباس آخذاً بلجام بغلته يكّفها عن السرعة خوفاً عليه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ناد أصحاب السمرة - يعني أصحاب بيعة الرضوان تحت الشجرة - وكان العباس رجلاً جهوري الصوت، فنادى بأعلى ما يقدر: يا أصحاب السمرة! يا معشر الأنصار! فلما سمع المسلمون الهاربون ذلك الصوت، ُروي عن العباس نفسه في الحديث الصحيح عند مسلم قوله: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، فاقتتلوا والكفار. تركوا جمالهم وهربوا منها راجلين نحو الصوت، حتى عاد الجيش يتجمع حول نبيه من كل جانب، وانقلبت الهزيمة في لحظات إلى نصر، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يرى اشتداد المعركة من جديد: الآن حمي الوطيس.

وفي هذا المشهد - رجل واحد يثبت بينما يفّر من حوله، ثم صوت عّمه يستنهض القلوب الهاربة فتعود كما تعود الأم لولدها - أصدق تصوير لمعنى القيادة التي لا تُقاس بعدد المؤيدين في لحظة الشدة، بل بصلابة من يرفض أن يتحرك من مكانه.

ثم غزوة الطائف، تتّبع فيها النبي صلى الله عليه وسلم من تحّصن من هوازن وثقيف في حصن الطائف، فحاصرها أياماً دون أن يفتحها عنوة، ثم رفع الحصار بعد أن رأى المصلحة في ذلك، فأسلم أهلها بعد ذلك طوعاً دون قتال.

تبوك: غزوة العسرة وصدق كعب بن مالك (السنة التاسعة)

غزوة تبوك في رجب من السنة التاسعة، وهي آخر غزوة غزاها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه، خرج فيها بجيش عظيم بلغ ثلاثين ألفاً، بعد أن بلغه أن الروم يحشدون لغزو الجزيرة العربية من الشمال، فسار إليهم في حّر شديد ومسافة بعيدة حتى ُسّميت غزوة العسرة. وفي هذه الغزوة، التي لم يقع فيها قتال يُذكر، وقع أحد أصدق المشاهد العاطفية في السيرة كلها، وهو قصة كعب بن مالك، أحد كبار الصحابة وشعرائهم، الذي روى تخلفه عن هذه الغزوة بنفسه في حديث طويل صحيح متفق عليه عند البخاري ومسلم.

قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في تبوك، وكنت في ذلك الوقت أيسر ما كنت وأقوى ما كنت، فلم يكن لي عذر، لكنه أخذ يسّوف ويؤجل التجهز يوماً بعد يوم حتى فاته الجيش وهو لا يزال بالمدينة، فلما خرج النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه، شعر كعب بثقل ما فعل، فلما عاد النبي صلى الله عليه وسلم من الغزوة، جاءه المتخلفون يعتذرون له بأعذار مصنوعة فيقبل منهم ظاهرها ويكل سرائرهم إلى الله، فجاء كعب وهو يعلم في قلبه أنه لا عذر له، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم بصدق نادر: والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولكني والله لو حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشك الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علّي فيه، إني

لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك.

ثم نهى النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين عن الكلام مع كعب وصاحبيه اللذين صدقا مثله، فاجتنبهم الناس جميعاً حتى أقرب أصحابهم، يصف كعب تلك الأيام بقوله: تنّكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف. فكان يخرج يشهد الصلاة مع المسلمين فلا يكلمه أحد، ويسّلم على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصلاة فيتساءل في نفسه: هل حّرك شفتيه برّد السلام أم لا؟ حتى تسّور يوماً جدار ابن عمه وأحّب الناس إليه أبي قتادة، فسّلم عليه، فلم يرّد عليه السلام، فسألهكعب: أنشدك بالله، هل تعلمني أحّب الله ورسوله؟ فسكت أبو قتادة ولم يجب.

واستمرت هذه المقاطعة خمسين ليلة كاملة، حتى ضاقت على كعب نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فبينما هو جالس على سطح بيته صبيحة الليلة الخمسين، سمع صوت رجل يصرخ من أعلى جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر! فخّر كعب ساجداً، عارفاً أن الفرج قد جاء، وأن الله قد تاب عليه. فجاءه الناس من كل جانب يهّنئونه بتوبة الله، حتى نزع عن نفسه ثوبيه - وما يملك سواهما يومئذ - فأعطاهما لمن بّشره فرحاً، واستعار ثوبين آخرين ليلبسهما، ودخل المسجد فإذا النبي صلى الله عليه وسلم يستنير وجهه كالقمر فرحاً، فقال له: أبشر بخير يوم مّر عليك منذ ولدتك أمك. فقال كعب: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ فقال: لا، بل من عند الله. ونزل فيه وفي صاحبيه قول الله تعالى: «وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا

ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم» (سورة التوبة: 118).

وفي قصة كعب بن مالك كلها - من التسويف، إلى الصدق المؤلم، إلى خمسين ليلة من العزلة القاسية وسط أهله ومدينته، إلى صرخة البشارة من رأس الجبل - أصدق تجسيد لما يعنيه الإيمان حين يصطدم بضعف النفس البشرية، وأصدق شهادة على أن الصدق - حتى حين يكّلف صاحبه ألماً طويلاً - هو الطريق الوحيد الذي ينتهي بصاحبه إلى رحمة لا يبلغها الكاذب أبداً.

وبهذه الغزوة، ختم النبي صلى الله عليه وسلم مرحلة الجهاد بالسيف في حياته، إذ لم يخرج بعدها لغزو، بل توّجه في السنة التالية إلى حجة الوداع التي فُصّلت في فصل سابق، ثم توفي بعدها بأشهر قليلة.

الباب الخامس: ختام السيرة

◆ ❁ ◆

الفصل العشرون: تدمع العين ويحزن القلب

في السنة الثامنة من الهجرة، رزق رسول الله صلى الله عليه وسلم بآخر أبنائه، غلاماً من زوجته مارية القبطية، التي كان قد أهداها له المقوقس عظيم مصر، فسّماه على اسم أبي الأنبياء إبراهيم، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم عن أنس بن مالك، الذي يصف فرحة النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المولود حين أرسل في طلب أنس ليلتها وهو يقول له: «ولد لي الليلة غلام فسميته باسم أبي إبراهيم.

ودفعه النبي صلى الله عليه وسلم، كما جرت عادة العرب، إلى مرضعة من خارج بيته، أم سيف امرأة حّداد يُدعى أبو سيف، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعاهد ابنه فيها، حتى وصفه أنس فيما رواه مسلم بكلمة تكشف عن عمق رعايته: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان إبراهيم مسترضعاً في عوالي المدينة، فكان ينطلق صلى الله عليه وسلم بنفسه، ونحن معه، فيدخل ذلك البيت الذي يدّخنه الحّداد بنار صنعته، غير مستنكف أن يكون بيتاً متواضعاً لا يناسب مكانته، بل يدخله ليضم ابنه ويُقّبله ويشّمه دون أن يأبه بدخان يملأ المكان.

ولم يطل عمر إبراهيم في هذه الدنيا، فمرض وهو لا يزال في الثدي، حتى حضرته سكرات الموت وهو ابن ثمانية عشر شهراً، فدخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم، كما

يصف ذلك أنس في الحديث الذي اتفق عليه البخاري ومسلم، وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف، وكأنه يستغرب أن يبكي رسول الله: وأنت يا رسول الله؟ فأجابه بكلمة تهدم كل تصور خاطئ عن النبوة كحالة من الَجَلَد الذي لا يعرف الدمع: يا ابن عوف، إنها رحمة.

ثم أتبعها بقوله، وهي الكلمة التي ُحفظت في كتب الحديث منذ ذلك اليوم شاهداً على إنسانية النبوة في أرّق تجلياتها: إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي رّبنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون. وفي هذه الكلمات القليلة توازن دقيق بين عاطفتين قد يظن كثيرون أنهما متناقضتان: حزن صادق لا يُكابر عليه ولا يُتجّمل في إخفائه، ورضا كامل بقضاء الله لا يسمح للحزن أن يتجاوز حدوده إلى السخط أو الجزع.

وقد ُروي في موضع آخر، فيما رواه ابن إسحاق وأهل السير، أن عبد الرحمن بن عوف عاد فسأله متعجباً: أَولم تنه الناس عن البكاء، يا رسول الله؟ فأجابه بتفصيل يفّرق بين نوعين من الحزن: إنما نهيُت عن صوتين أحمقين فاجرين، صوت عند نغمة لهو ولعب، وصوت عند مصيبة، خمش وجوه وشق جيوب ورنة شيطان، وأما هذا فإنما هو رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحم. وفي هذا التفصيل تتجلى دقة فقهية تحمي العاطفة الإنسانية من أن تُصاَدر باسم الصبر، بقدر ما تحميها من أن تنفلت باسم الحزن.

ولما توفي إبراهيم، صّلى عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأمر بدفنه في البقيع، وحضر دفنه، فلماّ سّوي قبره، رأى حجراً في جانبه غير منتظم، فجعل يسّويه بأصابعه بنفسه وهو يقول: إذا عمل أحدكم عملاً فليُتقنه، فإنه مما يُسّلي نفس المصاب – وفي هذا الحرص على إتقان حتى أصغر تفاصيل دفن ابنه، رغم ثقل المصيبة، تتجلى دقة في الحضور الذهني لا تنشغل عنها أعظم الأحزان.

وقد انكسفت الشمس في ذلك اليوم نفسه، فظّن بعض الناس أن انكسافها كان حزناً على وفاة ابن النبي صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم حين سمع بذلك، فحمد الله وأثنى عليه، ثم صّحح هذا الظن بنفسه قبل أن ينتشر، قائلاً، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياة أحد، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى المساجد. وفي هذا التصحيح، الذي يأتي في أحزن لحظة من حياته الشخصية، شاهد على أمانة علمية وعقدية لم تتزحزح حتى تحت وطأة الحزن الشخصي: أن يرفض استثمار خرافة شعبية لصالح تعظيم مصيبته الخاصة، رغم أن كثيراً من الناس كانوا سيجدون في تلك الخرافة عزاءً يكّرمهم.

وفي هذا الفصل القصير، الذي لا يحمل معركة ولا فتحاً، يكتمل ذلك الخط الذي مّر معنا منذ الفصل الأول: رجل لم تتغّير رّقة قلبه بتغّير مقامه، من الزوج الذي يرتجف عند أول الوحي طالباً أن يُزَّمل، إلى الأب الذي تدمع عيناه على ابنه الرضيع وهو في قمة سلطانه وانتشار دعوته، مروراً بكل تلك المحطات التي رأيناه فيها يرفق بالضعيف ويعفو عن القوي ويصدق في كل مشهد من مشاهد حياته. فختام السيرة، كبدايتها،

يحمل نفس الرسالة: أن عظمة هذا الرجل لم تكن في كونه فوق الإنسانية، بل في أنه أبلغ الإنسانية أعلى ما تبلغه، وهو لا يزال إنساناً كامل الصدق في كل ما يشعر به.

◆ ❁ ◆

الفصل الحادي والعشرون: حجة الوداع

في السنة العاشرة من الهجرة، بعد أن استقام أمر الدين في جزيرة العرب كلها، وأقبلت القبائل من كل جهة تدخل في الإسلام طوعاً بعد أن كانت بالأمس تحاربه، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة قاصداً مكة، لا فاتحاً هذه المرة بل حاّجاً، يؤدي فريضة لم يكن قد أّداها من قبل بهذه الصورة الكاملة، وكأنه يستشعر، وإن لم يصّرح بذلك، أن هذه الرحلة ستكون الأخيرة في حياته.

ورافقه في هذه الحجة ما يقارب مئة وعشرين ألفاً من المسلمين، حشد لم تشهد له جزيرة العرب مثيلاً من قبل، يقصدون البيت الذيُطرد منه قائدهم مهاجراً منذ ثماني سنوات، فيدخلونه معه اليوم آمنين مطمئنين، وفي هذا التحول وحده، من رجل وحيد يفّر بدينه تحت جنح الظلام إلى قائد يتقّدم مئة ألف يصّلون خلفه في النهار العلني، عبرة لمن يتأمل كيف يصرف الله الأمور في غير ما توقعه أحد.

ولما وقف بجبل عرفات، وقف خطيباً في تلك الجموع الهائلة، يلقي خطبةًعرفت بخطبة الوداع، وهي من أعظم الخطب التي عرفها التاريخ الإنساني في تكثيفها للمبادئ الكبرى في كلمات معدودة، فقال، كما يثبته الحديث الصحيح المتفق عليه عند مسلم: "إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم"، ثم قال: "ألا كل

شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع"، فهدم بهذه الكلمة وحدها كل عصبية وتفاضل قبلي كانت عليه الجزيرة منذ قرون.

وفي تلك الخطبة، تطّرق إلى حق المرأة بما لم تعرفه الجاهلية من قبل، فقال فيما رواه مسلم: "استوصوا بالنساء خيراً"، وذّكر بحقوق الزوجات على أزواجهن وحقوق الأزواج عليهن في توازن لم يكن معروفاً في عرف ذلك الزمان، وفي هذا الذكر، وسط خطبة تتناول أصول العقيدة والمبادئ الكبرى، توقفاً عند تفصيل إنساني دقيق يكشف عن عناية لا تغفل أضعف الحلقات في المجتمع حتى في أعظم اللحظات.

ثم قال جملته الخالدة التي تجمع كل معاني المساواة التي جاء بها هذا الدين: "كلكم لآدم وآدم من تراب"، وفي رواية أخرى بمعناها أن لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح، فهدم بهذه الكلمات أعتى أنواع التمييز التي عرفتها البشرية، وكأن آخر ما يريد أن يُحفر في وعي أمته قبل أن يرحل هو أن البشرية كلها من أصل واحد، لا يفضل بعضها بعضاً إلا بما تقّدمه أيديها.

ولما أنهى خطبته، نزلت آية يستشعر فيها كل من تأمل سياقها نبرة ختام ووداع، رغم أنها في ظاهرها آية تكريم وإتمام: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» (سورة المائدة: 3)، حتىٰروي عن ابن عباس وغيره من الصحابة أنهم استشعروا من نزولها أن أجل النبي صلى الله عليه وسلم قد اقترب، وبكى بعضهم، حتىٰسئل أحدهم عن سبب بكائه فقال: ما نزل من القرآن إلا زيادة فينا، وما هذه إلا علامة على اكتمال الأمر، وما اكتمال الأمر إلا اقتراب من الرحيل.

وفي تلك الحجة، رأى النبي صلى الله عليه وسلم من الرفق والرحمة ما يستحق أن يُحفظ كآخر صورة عملية لأخلاقه قبل وفاته، فقدروي أنه وقف لرجل سأله عن أمور الحج فأجابه بصبر، ثم جاءه آخر بسؤال مشابه فأجابه بنفس الصبر دون أن يبدي ضجراً من تكرار الأسئلة، ووقف لامرأة من خثعم سألته عن الحج عن أبيها الشيخ الكبير، فأجابها برفق دون أن يستثقل سؤالها، حتى في تلك اللحظات المزدحمة التي قد تشغل أعظم القادة عن تفاصيل من حوله.

وبعد أن أدّى نسكه وعاد إلى المدينة، لم يمكث طويلاً حتى اشتكى وعكاً في جسده، فثقل عليه المرض شيئاً فشيئاً، حتى كان في أيامه الأخيرة يُصلي بأصحابه وهو مّتكئ من شدة ما به، وُروي أنه في تلك الأيام الأخيرة أكثر من قول: "الصلاة، الصلاة"، وكأن آخر ما يهّمه من أمور الدنيا وهو يستعد للرحيل هو صلاة أمته، لا شأن من شؤون الحكم أو السياسة.

ولما اشتّد به المرض، دخل عليه أصحابه وهو يعاني سكرات الموت، فكانت عائشة رضي الله عنها، كما تصف ذلك في الحديث الصحيح المتفق عليه، تراه يضع يده في قدح من ماء عنده ويمسح بها وجهه ويقول: "لا إله إلا الله، إن للموت سكرات"، حتى مال رأسه عند آخر لحظة، وكانت آخر كلماته فيما تروي بعض الروايات الصحيحة: "بل الرفيق الأعلى"، إجابة على ما يبدو أنه سؤال أو نداء غيبي لم يُدرك أصحابه كنهه، وكأنه حتى في آخر لحظة من حياته اختار أن يتوجه إلى الأعلى، لا إلى الدنيا التي تركها وراءه دون أن يلتفت إليها.

وهكذا انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ربه، تاركاً أمة بلغت في أقل من ربع قرن ما لم تبلغه أمم في قرون، لكنه ترك معها، وهذا أعظم ما تركه، نموذجاً كاملاً لخلق إنساني لم يفترق فيه القول عن الفعل، ولا الرحمة عن العدل، ولا القوة عن الرّقة، من غار حراء الذي بدأ فيه خائفاً يطلب من يُثّبته، إلى عرفات التي وقف فيها يخطب مئة ألف إنسان يستمعون إليه في خشوع، ظّل على حاله نفسها: رجلاً لم تُغّيره الشدة عن صبره، ولم يُغّيره النصر عن تواضعه، ولم يُغّيره الانتقام الممكن عن عفوه.

◆ ❁ ◆

الفصل الثاني والعشرون: فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

بعد أن طاف بنا هذا الكتاب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم من غار حراء إلى وداعه في عرفات، عابراً بنسبه وأخلاقه ومعاركه، يحسن أن نختم بفصل يربط بين القارئ وبين هذا النبي العظيم برباط عملي متجدد كل يوم: فضل الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، تلك العبادة التي أمر الله بها المؤمنين جميعاً في كتابه، ووعد عليها من الأجر ما لا يحصيه إلا هو.

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالصلاة على نبيه صلى الله عليه وسلم في آية صريحة من كتابه، يقرن فيها بين صلاته هو سبحانه وصلاة ملائكته وصلاة المؤمنين، فقال عز وجل: «إِنَّ اللهَ وملائكته يصلّون على النبيِّ يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً» (سورة الأحزاب: 56). وفي هذا الجمع، بين تصلية الله نفسه وتصلية ملائكته المقربين وتصلية عموم المؤمنين على رجل واحد، تشريف لم يُعَط لأحد من الخلق سواه، وكأن الله سبحانه يُعلن لعباده منزلة هذا النبي عنده في الملأ الأعلى، ثم يأمرهم أن يشاركوا في هذا الثناء.

ولما نزلت هذه الآية، سأل الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم عن كيفية هذه الصلاة، فقد ثبت في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري ومسلم عن كعب بن عجرة، قال: قلنا يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: قولوا: اللهم صِّل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وهذه الصيغة، التي تُعرف بالصلاة الإبراهيمية، هي أصح وأكمل ما ثبت في كيفية الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، وهي نفسها التي يقولها كل مسلم في التشهد الأخير من صلاته.

تواترت الأحاديث الصحيحة في بيان عظيم الأجر المترتب على الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، فمنها ما رواه أبو هريرة، في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من صّلى علّي صلاة، صّلى الله عليه بها عشراً. وفي هذا الوعد، أن تُقابَل الصلاة الواحدة من العبد بعشر صلوات من الله عليه، عطاء يفوق كل حساب بشري للمقابلة بين الفعل والجزاء.

وقد ورد أيضاً، فيما رواه الترمذي وحّسنه، قوله صلى الله عليه وسلم: أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علّي صلاة، وفي هذا الحديث ترغيب في الإكثار من هذه العبادة طمعاً في القرب منه صلى الله عليه وسلم في أعظم يوم يحتاج فيه كل إنسان لمن يشفع له. كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الترمذي وحّسنه أيضاً: البخيل منْ ذكرُت عنده فلم يصِّل علّي، وفي وصف من يسمع ذكره صلى الله عليه وسلم ولا

يصلي عليه بالبخل، إشارة إلى أن هذه الصلاة ليست تكّلفاً ثقيلاً، بل أيسر ما يمكن أن يُقَّدم وفاءً لحق من جاء بالهداية للعالمين.

استحّب أهل العلم الإكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في كل وقت، وخّصوا بعض الأوقات بمزيد تأكيد، كيوم الجمعة، لقوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود بإسناد جيد: إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثروا علّي من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة علّي. وكذلك عند سماع الأذان، لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص الصحيح عند مسلم: إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صّلوا علّي، فإنه من صّلى علّي صلاة صّلى الله عليه بها عشراً.

أما ما اشتهر بين بعض الناس من تخصيص عدد ألف مرة في اليوم لهذا الذكر، فينبغي التنبه إلى أن الحديث الوارد في هذا العدد بالذات، ولفظه: من صّلى علّي في يوم ألف مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة، حديٌث ضّعفه أهل العلم، ومنهم الشيخ الألباني الذي وصفه بالنكارة. وهذا لا يعني عدم استحباب الإكثار من الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، فهذا أمر ثابت بالأدلة الصحيحة كما تقّدم، لكنه يعني أن تخصيص رقم معّين بعينه، مثل ألف مرة أو ثلاثمائة، وجعله سّنة ثابتة بعينه، لم يثبت عليه دليل صحيح، ومن كان قد اتخذه لنفسه شخصياً اجتهاداً منه في الإكثار من الخير فلا حرج عليه، بشرط ألا يعتقد أن هذا العدد بعينه سنة نبوية متعّمدة.

أكمل ما ثبت في صيغة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، كما تقّدم، هي الصيغة الإبراهيمية الكاملة: اللهم صِّل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم

وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. وقد وردت لها صيغ أخرى مختصرة صحيحة أيضاً، منها ما رواه أبو حميد الساعدي في الحديث المتفق عليه: اللهم صِّل على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى أزواجه وذريته، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

وأيسر ما يقوله المسلم في حياته اليومية، خارج الصلاة المفروضة، هو أن يقول: اللهم صِّل وسّلم على نبينا محمد، أو يقول: صلى الله عليه وسّلم، كلماٗذكر اسمه الشريف، فهذا أيسر صيغ هذا الذكر وأكثرها تكراراً على ألسنة المسلمين في كل زمان ومكان.

وفي ختام هذا الفصل، وختام هذا الكتاب كله، يحسن أن يستحضر القارئ أن كل ما قرأه من سيرة هذا النبي العظيم، من غار حراء إلى عرفات، إنما يستحق منه في النهاية كلمة صادقة يقولها بقلبه ولسانه معاً: اللهم صِّل وسّلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، فهذه الكلمة اليسيرة هي أقل ما يمكن أن يُقَّدمه كل قارئ لهذا الكتاب وفاءً لحق منٗبعث رحمة للعالمين.

❊ ✦ ❊

ملحق: الفتوحات في عهد الخلفاء الراشدين

❊ ✦ ❊

لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم، لم تتوقف مسيرة الدولة التي أسسها، بل واصل من خلفه من بعده حمل أمانتها، وفي مقدمة ما واجهوه: محاولات بعض القبائل العربية الانفصال عن الدولة الناشئة، فيماٴعرف بحروب الردة، ثم اتساع الفتوحات خارج الجزيرة العربية كلها. وهذا الفصل يلّخص أبرز ما جرى من ذلك في عهد الخلفاء الأربعة الراشدين، دون تفصيل، استكمالاً لما بدأه النبي صلى الله عليه وسلم من جهاد ودعوة.

عهد أبي بكر الصديق: توحيد الجزيرة وبدء الانطلاق

تولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة، فواجه أول ما واجه ارتداد بعض القبائل عن الإسلام، ومنع بعضها الزكاة، وظهور متنبئين كذبة كمسيلمة الكذاب في اليمامة، فقاد المسلمون بقيادة خالد بن الوليد حروب الردة حتى أعادوا توحيد الجزيرة العربية كاملة تحت راية الإسلام، وكانت أشد هذه المعارك معركة اليمامة التي قُتل فيها مسيلمة الكذاب.

وبعد استكمال توحيد الجزيرة، وّجه أبو بكر الجيوش نحو العراق والشام في وقت متقارب: ففي العراق، خرج خالد بن الوليد يحارب الفرس وحقق انتصارات أولى مّهدت لما سيأتي بعده في عهد عمر. وفي الشام، أرسل أربعة جيوش بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، فحقق المسلمون تقدماً مهماً في تلك الجبهة ضد الروم البيزنطيين.

عهد عمر بن الخطاب: اتساع الدولة شرقاً وغرباً

في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي امتّد نحو عشر سنوات، تحقق أعظم اتساع للفتوحات الإسلامية في وقت واحد. فعلى جبهة الفرس، انتصر المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص في معركة القادسية، وهي من أعظم المعارك الفاصلة، ثم دخلوا عاصمة الفرس المدائن، وامتدت الفتوحات بعدها لتشمل بلاد فارس كاملة. وعلى جبهة الروم في الشام، تحقق نصر فاصل آخر في معركة اليرموك، ثم دخل

المسلمون بيت المقدس، وتسّلم عمر مفاتيحها بنفسه. وفي تلك الفترة أيضاً، تم فتح مصر بقيادة عمرو بن العاص.

وقدُعرف عهد عمر، إلى جانب اتساع الفتوحات، بتأسيس نظم إدارية رصينة للدولة الإسلامية المتسعة: الدواوين، والقضاء المنظم، والتقويم الهجري الذي بدأ العمل به في عهده تحديداً، وقد استمرت هذه النظم الإدارية أساساً لماُبني عليه بعد ذلك.

عهد عثمان بن عفان: توسع الفتوحات واتساع الدولة

في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، استمرت الفتوحات تتسع، فامتدت إلى شمال إفريقيا غرباً، وإلى أطراف بلاد ما وراء النهر وأرمينية وأذربيجان شرقاً وشمالاً، فبلغت الدولة الإسلامية في عهده أقصى اتساع جغرافي لم تبلغه من قبل. وفي عهده أيضاً تم جمع القرآن الكريم في نسخة موحدة ُعرفت بالمصحف العثماني، توزيعاً على الأمصار لضبط القراءة وحفظاً للنص من الاختلاف.

لكن أواخر عهده شهدت اضطراباً داخلياً أدى في النهاية إلى مقتله، وكانت هذه الفتنة بداية مرحلة مختلفة في تاريخ الدولة الإسلامية.

عهد علي بن أبي طالب: توطيد الداخل بدل التوسع الخارجي

تولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الخلافة في ظروف داخلية شديدة التوتر بعد مقتل عثمان، فانشغل عهده بمحاولة توطيد الصف الداخلي للدولة الإسلامية أكثر من توسعها خارجياً، إذ واجه نزاعات سياسية داخلية مع بعض الولاة الذين لم

يبايعوه فوراً، وانتقل بدار الخلافة من المدينة إلى الكوفة. ومع تصاعد هذه النزاعات الداخلية، توقفت سلسلة الفتوحات الكبرى التي شهدها العهدان السابقان على جميع الجبهات تقريباً، حتى انتهى عهده هو نفسه باستشهاده.

وبهذا، يكون عهد الخلفاء الراشدين الأربعة قد شهد، في زمن لا يتجاوز ثلاثين عاماً، توسعاً غير مسبوق في تاريخ الأمم: من جزيرة عربية موحدة بصعوبة بعد الردة، إلى دولة تمتد من حدود الهند شرقاً إلى شمال إفريقيا غرباً، حاملة معها رسالة التوحيد التي بدأها رجل واحد في غار حراء، قبل ذلك بأقل من نصف قرن.

خاتمة

وصلى الله على منْ بعث رحمة للعالمين

تم بحمد الله

للتواصل: 01018391226 — momaomhaya@gmail.com